الفصل الأول

صلة الانسان بالحيوان

ترجع صلة الإنسان بالحيوان إلى أقدم العصور التى عاشا فيها معا على ظهر الأرض ، وقد شغل الإنسان بالحيوان منذ ذلك الزمن البعيد .

ونشأت بينهما صلة روحيه أنشأها الخيال الانسانى . وأعانه على إنشائها الحيوان نفسه بما فيه من غرائز لا تتخلف ، ومن صمت يحيطه بالغموض والأسرار، ومن قوة تقذف الرعب منه فى القلوب، ومن منفعة عامة ترتفع به إلى درجة عظيمة فى الفضل .

ونشأت بينهما صلة مادية أيضا ، فتنازعا البقاء حينا . وتعاونا أحيانا ؛ وتلق الانسان عن الحيوان دروسا ساعدته على أن يرتقى فى مدارج الحضارة، وأن ينتقل من أطوار البداوة إلى حياة المدنية .

١ — الصلة الروحية

تجلت هذه الصلة فى اكبار الانسان للحيوان وتقديسه تقديسا بلغ به مرتبة الآلهة

وسبب ذلك أن عقل الانسان الأول كان أقل مقدرة على التعليل الصحيح وأضعف من أن يفهم أسباب الأشياء الحقيقية، فاعتقد فى الحيوان اعتقادات متعددة ، منها أن للحيوان روحا مثل روحه ، وأنها تبقى بعد موته . وتكون قادرة فى الحالتين على الخير والشر ؛ فكان من الطبيعى أن يتقرب إلى قوة الخير ، وأن يسترضى قوة الشر ، وأن تكون وسيلته إلى ذلك القرابين

والتقديس ، وعبادة الحيوان لذاته، أو لأن روحا مقدسا يحل فيه .

وربما رأى فى الحيوان رمزاً أو صورة لاله، أو لقوة أعلى منه لايراها فعبد الحيوان على أنه مظهر أو رمز لها (١)

واعتقدت بعض الأمم البدائية أن روح الحيوان قد حلت من قبل فى إنسان، إذ رأوا فى بعض الحيوان شبها بصديق مات أو قريب هلك ، فأجلوا ذلك الحيوان إجلالا قريبا من العبادة . (٢)

وحسب بعض القبائل أن روح الآباء تحل فى أجسام الحيوان ، فعبدوه لهذا الحلول . وكانت هذه العبادة حلقة بين عبادة أرواح الماضين الخيرة المسماة « Manes-Worship » ، وعبادة الحيوان الذاتية . (٣)

واعتقد بعض الناس فى انتقال الأرواح بعد الموت من جسم إلى آخر سواء أكان جسم إنسان أم حيوان وهو الذى يسمى « Metempsychosis » (٤) أو التناسخ .

وهذا الاعتقاد الغريب فى التناسخ قد بلغ حد الايمان بمقدرة الانسان على أن يتحول ذئبا مثلا ، ويسمى هذا الاعتقاد « Lycanthropy »

وقد قال المصريون القدماء بالتناسخ ، ونقلها عنهم الفيلسوف اليونانى فيثاغورس . وقال بها البوذيون من الهنود أيضا وربطوا هذا الانتقال ـ انتقال الأرواح بين الأجسام ـ بفكرة الثواب والعقاب . ويقال أن كل تناسخ متأثر بهذه الفكرة عند غيرهم من الناس ، قد بدأ من عندهم ، وتأثر بالبوذية أو الهندوسية .

---

(١) Animal, The Worship of., Chamber,s Ency. P. 287. vol.1

(٢) المصدر نفسه

(٣) المجلد الأول ص ٣٨٨ من : Chamber,s Ency. .

(٤) دائرة المعارف البريطانية مادة Metempsychosis

ويقول درنك ووتر (١) فى تفسير التناسخ أو انتقال الأرواح « Transmigration of souls » بأنه « بعد كثير من التجارب فى عدد من الأجسام تتحرر الروح أخيرا من الشخصية الذاتية « Individuality » وتتصل ببراهما الروح العام ، ويتعين عدد هذه الأجسام بالأفعال الحسنة والسيئة التى تفعلها الروح وهى فى الجسم » .

وقد كتب الأستاذ أحمد بك أمين عن هذه النظرية فقرة فى « ضحى الاسلام » (٢) ويقول فى ختامها : « ان الهنود قد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ . فقالوا إن الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر والعلم من الجهل ، فالأرواح الشريرة تتردد فى النبات وخشاش الطير ومرذول الهوام إلى أن تستحق الثواب فتنجو من الشدة وتتردد فيما هو أرقى .

وكان فيثاغورس يرى تناسخ الارواح بين الإنسان والحيوان ، وأن تحرير النفس يكون بترقيها فى دورة الحياة ، وذلك بالشعائر الدينية وبالفكر والتأمل والفلسفة .

ويظهر أن فكرة التناسخ أقدم وأعم من هذه المذاهب . فهى مرتبطة بفكرة النفس المادية .. وخلاصتها (٣) أن النفس مستقلة عن البدن وأنها مادية ، ويمكن أن تخرج من الجسم وتدخله عن طريق الفم والأنف ... وأكثر من آمن بهذه الفكرة يعتقد أن الروح المادية حشرة أو فراشة أو طائر أو ما أشبه ذلك . وأنها تستطيع أن تترك جسدها الأول إلى جسد آخر مادامت قادرة على التنقل ، وقد تختار لنفسها حيوانا أو نباتا كما تختار إنسانا .

وقد ظهرت هذه النظرية فى اليونان فى القرن السادس ق . م . ونشر

---

(١) Drinkwater, The Outline of Literature P. 134

(٢) ج ١ ص ٢٣٨ وفى قصة الادب فى العالم ج ١ ص ٦٣ تفسير لها أيضا .

(٣) Metempsychosis, Ency. Brit. P.336. vol 15

حولها أدب كثير . . . واختلف فى نشأتها هنالك فقيل إنها محلية وقيل إنها مصرية أو هندية ، والراجح أنها جاءت إليهم من مصر . وهذه العقيدة تلزم معتنقيها أن يحرموا لحم الحيوان كما يحرم الواحد منهم لحم أخيه الإنسان ، وهذه من مبادىء الدين البراهمى والفلسفة الفيثاغورية .

ويقول بنفى [١] « Theodor Benfey » إن فكرة التناسخ قد جاءت من المصريين ، لأنه ليس لها وجود عند أحد من الأجناس الهندية الأوربية إلا عند الهنود . ومما لا شك فيه أن بعض الصلات قد نشأ فى القديم بين النيل ونهر السند ، وربما كان الفينيقيون الناقلين لهذه العقيدة من مصر إلى هناك [٢] .

أما عبادة الحيوان فى مصر فقد ظهرت هناك من أقدم العصور وكانت أقدم من الحضارة المصرية - ويقول سبنس عنها [٣] - مما لا شك فيه أن الباعث على عبادة الحيوان أولا كان الخوف الممزوج بالإعجاب والرهبة من قوة المخلوق العجيبة ، ثم تطورت الفكرة فى الحيوان فصار يمثل الإله ، وأنه الصورة المادية للصفات المقدسة العلوية ، فكان من ذلك أن صار الثور والخروف - بما لها من مقدرة عظيمة على الإنتاج - يمثلان بعض آلهة الطبيعة وعودة الحياة فى كل عام . ويقول « لم يكن فى طوق الآلهة أن تحتفظ بالحياة الدائمة إلا بانتقال الأرواح من جسد إلى جسد » .

وقد عُبد الحيوان فى مصر فى عصورها القديمة فعبد العجل والبقرة والخروف والتمساح والقط والجعل والثعبان والسبع والضبع والصقر وغيرها .

---

(١) عالم المانى شهير ترجم البنج تانترا عن السنسكريتيه سنة ١٨٥٩

(٢) المجلد الأول ص ٢٨١ من : Chamber,s Ency.

(٣) Myths & Legends of Ancient Egypt by Lewis Spence P. 282-294.

ويقول برجسون [١] (١٨٥٩ - ١٩٤٠) عن عبادة الحيوان :

« ففى مصر القديمة مثلا ظلت هذه العبادة شائعة حتى النهاية . فالاله الذى نبت من صورة حيوانية أبى أن يتخلى عن هذه الصورة تخليا تاما ، فتوج جسمه الانسانى برأس حيوان » .

« ونحن ندهش اليوم لهذا ، لاسيما وللانسان فى نظرنا قيمة سامية ، فنحن نخصه بالعقل ونعلم ألا تفوق إلا ونبلغه بالعقل ، ولا نقص إلا ويستطيع العقل أن يسده ، بيد أن الأمر لم يكن كذلك قبل أن يثبت العقل كفاءته ، أى حين كانت ابتكاراته نادرة ، فما تظهر قدرته اللانهائية على الابتكار ، وحين كانت الأسلحة والأدوات التى يزود بها الانسان لاتصمد لأسلحة الحيوان وأدواته الطبيعية ، بل ان التفكير نفسه ، وهو سر قوته ، كان يبدو له عنصر ضعف ، لأنه منبع التردد ، على حين أن الحيوان إذ يستسلم لغريزته يستجيب استجابة مباشرة موثوقة ، حتى أن عجز الحيوان عن الكلام كان يحاط بهالة من الأسرار ، فصمته ترفع وتوفير لوقته أن يضيع معنا فى حديث ، هذا كله يفسر لنا لِمَ لم تنفر الانسانية من عبادة الحيوان . فترى لم قصدت اليها ؟ انما عبد الحيوان لخاصة ميزة فيه ، لقد كان الثور فى مصر القديمة يمثل قوة الطغيان ، وكانت اللبؤة رمز التهديم وكان النسر لعنايته بصغاره ، شعار الأمومة » .

وما زالت عبادة الحيوان موجودة إلى الآن فى الشعوب المتأخرة ، بل إن فى الشعوب المتحضرة من لايزال يعبد الحيوان . فهنود أمريكا الشمالية يعبدون « المانيتو Manitou » وهو حيوان فى أكثر الاحوال ويحمل الانسان جلده كأنه تميمة ، وينقش رسمه على الجسد أو يحفره على السلاح [٢]

---

(١) منبعا الأخلاق والدين ص١٦٩ تعريب سامى الدروبى وعبد الله عبد الدايم

(٢) Chambers,s Ency. مادة Animal, Worship of ج ١

والهند من أهم الأمم الحية التي مازال عبادة الحيوان باقية فيها عند البراهمة ، والبقرة المقدسة لايحافظ عليها الهندوسي فقط ولكنه ، يعبدها ويسجد لها يوميا وهو يقدم لها الحشيش والأزهار [١]

« ومازالت لها الحرية المطلقة في السير في الشوارع والوقوف في الميادين وتعطيل حركة المرور من غير أن يزعجها أحد أو يبعدها إلى مكان خاص [٢] »

ومازال الخلاف بين المسلمين والهندوس بسبب البقر حديث الدنيا وكم أزهقت بسببه أرواح وثارت ثورات وفتن ، فالمسلمون يذبحون البقر والهندوس يقتلهم ويبخع نفوسهم أن تُذبح آلهتهم .

ومازال تقديس الحيوان لمعنى من المعاني ، والتفاؤل به ، أو التشاؤم منه ، في أماكن أو في مناسبات ، موجودا في أرقى أمم الأرض حضارة . ومازال بعضه شارة لبعض الأمم كالنسر على العلم الانجليزي ، والنسر على العلم الألماني ، وهكذا .

هذه مظاهر من التقديس القديم الذي كان يتمتع به بعض هذه الحيوانات في تلك الأمم . ولعل بعض الأمم الراقية ترى فيه ما كان يراه الأقدمون من أسرار وبركة وحماية وفأل حسن . ولكن يمنعهم من عبادته تقدم العقول أو تعاليم الأديان . فيكتفون بالتبرك به .

الطوطمية واللامساس :

ومما يتصل بعبادة الحيوان وتقديسه ما يسمى «الطوطمية واللامساس» ، واولى الكلمتين جديدة في اللغات المتحضرة ولكنها قديمة المدلول في كثير من الأمم والقبائل ، وقد دخلت اللغة الانجليزية سنة ١٧٩١ من قبيلة Obijway

---

(١) قصة الحضارة ص ٥١٠ The Story of Civilization

(٢) ص ٥١٠ The Story of Civilization

من هنود أمريكا الشمالية . وقد أطلقت كلمة «Totem» عندهم على الحيوان المقدس ، والقبيلة التى تعبد هذا الحيوان وأفراد هذه القبيلة وسمى كل من هذه « طوطما » (١)

أما « الطوطم الأصلى » فهو كائن من الطبيعة تجله بعض القبائل المتوحشة . وقد يكون جمادا أو نباتا أو حيوانا . والطوطم الحيوانى أكثر شيوعا ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة «الطوطمية» أن بينه وبين «طوطمه» علاقة نسب . وهو يحمى صاحبه ويساعده ، ويبعث إليه الأحلام اللذيذة . وصاحبه يجله ويقدسه . ويقابل هذه المساعدة بالامتناع عن قتل الطوطم إذا كان حيوانا . وكثيرا ما يتفانى فيه ، يلبس جلده ، أو ينقش صورته على جسده أو ما أشبه ذلك . (٢)

أما علاقة النسب التى بين الإنسان والطوطم فتختلف باختلاف الأماكن : ففى بعضها يعتقد أعضاء العشيرة أنهم منحدرون من الطوطم نفسه ، وفى بعض الجهات الأخرى يظن أعضاء العشيرة أنهم منحدرون من شخص له علاقة من بعض الوجوه بالطوطم ، «كالمانيتو» فى أمريكا الشمالية.

وأهم مظاهر الطوطمية هى :-

١ - أعتقاد أعضاء العشيرة أنهم يمتون بعلاقة الدم إلى ذلك الطوطم .

٢ - تعظيم الطوطم وتقديسه ورفعه إلى مقام العبادة واتخاذه إلها للعشيرة

٣ - تسمية العشيرة باسم الطوطم .

٤ - تحريم أكله ولمسه والنظر اليه ، ومن يتعرض لذلك يصاب باذى .

٥ - توهم أصحابه أنه ينذر بالخطر قبل وقوعه .

٦ - الاحتفال بدفن الطوطم والحزن على وفاته .

---

(١) أساطير العرب فى الجاهلية ص ٥٤ عبد المعيد خان ، وقصة الحضارة ص ٦٠

(٢) Chamber,s Ency ج ١ ص ٢٨٨

وقد ساعدت الطوطمية على توحيد القبيلة التى تعتقد فى طوطم واحد وفرضت عليهم كثيرا من الواجبات من أهمها ما يسمى « التابو Taboo » أو اللامساس . . . . وهو نظام مبنى على قيود دينية تحرم بعض الأشياء المقدسة واستخدامها والنظر اليها والقرب منها بسبب القداسة التى لهـــذا الحيوان أو النجاسة التى هو عليها (١)

وكان الخروج على هذه النواهى واستباحة هذه المحرمات سببا فى حلول العقاب بفاعلها . وكان المرت هو العقاب فى المخالفات الكبيرة وبعض الأمراض فى المخالفات الصغيرة .

على أن بعض الحيوان المقدس كان يؤكل فى حالات معينة على أنه رسم دينى كما أكل « الجالاز Gallas » - بعض قبائل الأحباش - السمك الذى عبدوه ؛ أو كان يتخلص منه لسبب ما ، كما أغرق المصريون القدماء عجلهم « أبيس » إذا بلغ سنا معينة (٢) .

وفى الطوطمية كلام كثير ولكننا عرضنا لها بايجاز مبينين أهم مظاهرها لأنها نوع من عبادة الحيوان وتقديسه (٣) .

٢ - الصلة المادية

وتجلت هذه الصلة قديما وحديثا فى فضل الحيوان على الحضارة والناس :

وقد أرجع كثير من الباحثين الفضل فى نشأة الحضارة وتقدمها إلى ما تعلم الانسان عن الحيوان من مقدمات الحضارة فى الأزمنة القديمة :

---

(١) الدكتور على عبد الواحد « المسئولية والجزاء » ص ٨٧

(٢) ص ٦٠ The Story of Civilization

(٣) أنظر كتاب « النظم الإجتماعية والسياسية عند الساميين » للمرحوم محمود جمعة من ص ٩٩ - ١٤٢ ، وهو ينفى معرفة العرب وممارستهم للطوطمية

فالحيوان هو الذى أرغمه على التجمع، إذ كان ضعف الانسان أمام قوة بعض الحيوان سببا من أسباب تجمع الناس وتعارفهم ليدفعوا عن أنفسهم مايتعرضون له من خطر هذا الحيوان القوى (١)

وقد تعلم منه كيفية الادخار فساعده ذلك على الاستقرار فى مكان وعلى الانصراف الى أعمال أخرى كجمع القوت ... « فالكلب الذى يدفن العظم والسنجاب الذى يجمع الجوز كى يستمتع به فى مستقبل الأيام، والنحل الذى يملأ الأقراص بالشهد والنمل الذى يخزن الطعام لليوم المطير، كانت من بين مبتدعى الحضارة وكانت هذه وغيرها من المخلوقات الحاذقة الماهرة مما علم آباءنا الأولين فن الادخار للغد من الزائد عن اليوم، أو الاستعداد للشتاء بما يكثر من خيرات الصيف . (٢) »

وكان من فضله أن علم الانسان المقدرة على البحث عن الطعام فى الأرض فقد كان الانسان الأول يبحث عن الطعام بيد عارية قد تدمى أو تكل عن الحفر فى الأرض الصلبة، فلما رأى الحيوان يستخدم مخالبه وأنيابه أعجب بها ولما سنحت الفرصة استعارها للبحث، أو صنع مثلها من أغصان الأشجار (٣)

ولما انتقل الانسان من حياة الصيد غير الآمنة، إلى حياة الرعى الأكثر أمنا وطمأنينة، كان للحيوان فضل عليه أيضا، فانه ألف الحيوان ورقى الأنعام وانتفع بها فى أعمال الزراعة، واستخدم ألبانها ولحومها فى الطعام (٤)

ولا يعرف بالدقة متى كان ذلك، ويظن أنه بدأ عندما استحيا الانسان صغار الحيوان الذى قتله فى الصيد، وجاء بها إلى خيمته ليتلهى بها الأطفال ثم كبر الحيوان الصغير، وأنس بالناس، وعاش بينهم صديقا وخادما، يحمل

---

(١) ص ٣٠ The Story of Civilization لمؤلفه Durant

(٢) المرجع نفسه ص ٦ (٣) المرجع نفسه ص ٦ (٤) ص ٨

الأثقال ويثير الأرض ويسقى الحرث ، وأجره على ذلك مايقدم إليه من الطعام والمأوى .

ثم تكاثر الحيوان ، وكان منه ما يجود باللبن ، فاستراحت المرأة من طول الرضاع ، ووجد الأطفال غذاءا جديدا يمكن الاعتماد عليه ، فقويت صحتهم وقلت الوفيات بينهم .

وقد عقد «ديورانت» فصلا عنوانه « أسس الصناعة » يقول فيه [١] : — يظهر أن الانسان كان راضيا فى أول الأمر بما تمده به الطبيعة من ثمرات الأرض طعاما ، ومن جلود الحيوان وأوباره كساء ... ثم حاكى الحيوان فى آلاته وصناعته ، إذ رأى القرد يقذف أعداءه بالحجارة والثمار ، ويكسر الجوز والاصداف بالاحجار ، ورأى كلب البحر يبنى السدود ، والطيور تبنى الاعشاش ، والشمبانزى تقيم الاكواخ ، فحسد الحيوان على قوة مخالبه وأسنانه وقرونه وخراطيمه وجلوده ، فصنع آلات وأسلحة تشبه هذه وتنافسها .

وأخذ من الحيوان كثيرا من أدواته : فصنع المغارف والملاعق والآنية والصحاف والأكواب والمواسى من أصداف الشواطىء ، والآلات الصلبة والرقيقة من القرون والعاج ، ومن الاسنان والعظام ، ومن الشعر والجلد ؛ واتخذ لهذه الآلات الايادى من الخشب ، وشدها بشرائح من الشجر ، أو بخيوط من جلود الحيوان وعضلاته ، وربما دهنها بدمه .

وفى صناعة النسيج اهتدى الانسان بالحيوان « فبيت العنكبوت وعش الطائر ، وتشابك الأوراق والأغصان فى الغابات ، تضرب مثلا واضحا جدا على أن النسج يحتمل أن يكون من أقدم الفنون التى عرفها الانسان ؛ وفضل الحيوان ظاهر فى تعليم الانسان هذا الفن . [٢]

---

(١) The Story of Civilization ص ١٢

(٢) المرجع نفسه ص ١٣

وهذا قليل من كثير من فضل الحيوان على الانسان وهدايته الى طريق الحضارة . أما مظاهر هذه الصلة فى العصور الحديثة فهى أكثر من أن تذكر .

وفضل هاتين الصلتين على الانتاج الأدبى قديم وعظيم :

أما الصلة الروحية فقد كان لها مظاهر أدبية متعددة منها ما جاء على شكل أساطير قصصية تسمى «الميثولوجى» ومنها خرافات تسمى ال Fables بمعناها العام ، ومنها قصص لها مغزى خلقى ، وربما كانت جزءا من الخرافات وهى المعروفة باسم « Apologue » أو الموعظة .

وعندنا نوع من القصص الدينية كان الحيوان موطن إعجاز فيه ، وهى قصص وقعت حوادثها فعلا ، وأعنى بها قصص المعجزات التى كان الحيوان فيها مظهر الاعجاز كالبقرة والناقة والنملة والهدهد .

وكانت الصلة المادية مصدر أدب قوى يصف الحيوان وصفا خارجيا فى الغالب أو يتحدث عن منافعه ويذكر بعض خصال الخير فيه ، أو يصف جمال منظره ، أو يقص بعض المغامرات فى صيده ، أو مايشبه ذلك . وعندنا فى الادب العربى شىء كثير من هذا كوصف امرىء القيس للفرس ، والنابغة لكلب الصيد ، وطرفه للناقة .

وننتقل الآن الى الكلام عن هذه الآثار الادبية التى تنشأ من العلاقة الروحية .

الفصل الثاني

الأساطير ـ الخرافات ـ المواعظ

١ ـ الأساطير :

الأسطورة أو « Myth » قصة من القصص الخرافية ، أو حكاية من الحكايات الخيالية، وبخاصة تلك التي توجد عند الأمم في حالاتها الأولى ...

وتشتمل على أشخاص أو حوادث أو أعمال فوق طاقة البشر ،وفيها فكرة عامة تدور حول ظواهر طبيعية أو تاريخية . (١)

أما الميثولوجي Mythology أو الأساطير فيقصد بها مجموعة هذه الحكايات ، كما يقصد بها أيضا دراسة هذه الأساطير دراسة علمية ، كالبحث في أصلها، ومواطنها، وعلاقاتها بالدين، ودلالتها على أخلاق الأمة ومعتقداتها وهكذا . وقد شغل الانسان من قديم الزمن بمظاهر الطبيعة التي كانت تواجهه صباح مساء ولم يستطع لها تفسيرا ، وأبى أن يتركها بلا تفسير فشغل بها وأنشأ هذه الاساطير حولها .

وقد سأل الإنسان منذ ذلك الحين عن أصل العالم والإنسان والحيوان. وكيف نشأت النجوم، وعلى أي نظام تسبح في أفلاكها ،وكيف تتحرك الشمس والقمر ، وكيف كانت هذه الشجرة حمراء الزهر ، وكان على ذيل هذا الطائر

---

(١) مادة Myth ، The Shorter Oxford Enghish Dictionary:

علامة سوداء وغير ذلك من الأسئلة (١)

وقد أجاب عن ذلك متأثرا باحساسه بالمساواة بينه وبين بقية المخلوقات، إذ اعتقد عندئذ أن فى كل حيوان روحا كروحه ، وأن لكل شىء شخصية كشخصيته . وحاول حل مشاكل الطبيعة متأثرا بهذه المعتقدات، وأجاب عن تلك الأسئلة فى قصص سميت الأساطير . وكان من هذه الأساطير عدد كبير يدور حول الحيوان ، وكان يسمو فيها إلى درجة الألوهية أحيانا .

ومما يثير العجب أن يكون هناك تشابه عظيم بين أساطير الأمم ؛ أما تعليل هذا التشابه فقيل فيه إنه نتيجة الصُّدْفة فقط ؛ لكنه تعليل غير مقبول فالصدفة لا تؤدى إلى الاتفاق الكثير الدقيق الموجود بين هذه الأساطير. وقيل إن هذا التشابه عند الهنود والفرس واليونان والرومان والجرمان والروس والكلتيين وأهل اسكنديناوه راجع إلى وحدة الأصل ، لأنهم ورثوها عن آبائهم الأولين الذين كانوا يعيشون فى مرتفعات آسيا الوسطى، وهاجرت معهم لما هاجروا إلى آسيا الصغرى وأوروبا .

ولكن هذا التعليل على وجاهته يضعف إذا عرفنا أن مثل هذه الأساطير قد عرف عند الشعوب غير الآرية كالصينيين وهنود أمريكا (٢)

ولعل أرجح الاقوال فى عموم الأساطير وتشابهها أنها نتيجة تجارب عامة، وعقليات متقاربة، وعواطف متجانسة يشترك فيها الناس جميعا قبل أن تطغى عليهم المؤثرات الخاصة كالبيئة والثقافة والحضارة وعوامل الزمن ، المؤثرة فى تطور الاساطير .

فقصة ديانا واندميون Diana and Endymion اليونانية قد عرف مثلها

---

(١) The Outline of Literature P. 17

(٢) أورد درنكوتر بعض هذه الأساطير المتشابهة فى ص ٣٠ من كتابه السابق وانظر قصة الأدب ص ١١٥ ج ١

الأستراليون المتأخرون والتسمانيون وبعض قبائل أفريقية ، وخلاصتها عند اليونان كما يأتي : (١)

كانت ديانا إلهة القمر تسوق جيادها الناصعة البياض عبر السماء فلمحت أنديميون ، الراعي الجميل الفاتن ، نائما على سفح جبل ، فانحنت عليه وقبلته وكانت تقف بعربتها كل ليلة في ذلك المكان لتستمتع بلحظة سعيدة ، لكنها بعد قليل من الزمن لم تحتمل التفكير في أن يفلت منها جمال انديميون ، فأغرقته في نعاس دائم ، وأخفته في كهف لا يدنسه إنسان .

« هذه القصة تمثل أسطورة من اساطير النجوم وانديميون فيها رمز للشمس الغاربة التي يتطلع إليها القمر كلما بدأ رحلته ليلا » .

ولا تختلف عند الجماعات الأخرى التي أشرنا اليها إلا في التفاصيل أما الفكرة العامة فواحدة .

وبعض المفسرين للاسطورة يجعلها رمزا للقوى النفسية والأخلاقية أو مظاهر الطبيعة ، كأسطورة إيزيس وأوزيريس ، لكن هناك خطرا في الالتجاء الى مثل هذا التفسير في كل الحالات . إذ أن بعضها لا يمكن تعليله على هذا النحو ، فضلا عن ان مرحلة الرمز في تاريخ التطور الإنساني متأخرة .

وخذ مثلا لذلك القصة الهندية التي تحدثنا عن السبب في ارتفاع قاع مضيق « بلك Palk » الذي بين الهند وجزيرة سيلان ، وهي جزء من قصة « رامايانا (٢) Ramayana » فان « راما » فقد زوجته الجميلة « سيتا » بحيلة دبرها له « رافانا Ravana » ملك سرنديب ، ولما علم بحقيقة الأمر قصد مسرعا الى مكان « رافانا » في مدينة « لانكا » بجزيرة سيلان . وفي طريقه الى الساحل

---

(١) The Outline of Lit. P. 30 وقصة الأدب ج ١ ص ١١٦

(٢) قصة الأدب في العالم ج ١ ص ٥١

الجنوبي مر باقليم تسكنه قبيلة متوحشة فى هيئة القرود ، فحاولت أن تعوقه ، لكنه شق طريقه بينها فى غير خوف . فأعجبت القرود ببسالته وحالفته وتطوع جيش جرار منها بصحبته ليعاونه على عدوه .

بلغ « راما » — على رأس جيش القرود — الشاطىء الجنوبي . ولما عاقه البحر عادت القرود إلى جبال هملايا وحملت منها أثقالا لاحصر لها من الصخر ، فقذفت بها فى الماء فشيدت جسرا يصل مابين الأرضين ، وعطف إله البحر على « راما » أيضا — فرفع له قاع البحر حتى يهون على القردة ما كانوا يصنعون ؛ وما دامت السماء سماء والأرض أرضا فسيظل هذا الجسر ناطقا باسم « راما » (١) .

وعبر جيش القردة الى مدينة « لانكا » وحاصروها ودامت الحرب بين المغيرين والمدافعين قوية عنيفة حتى هزم (رافانا) وقتل ، وتخلصت « سيتا » وعادت الى زوجها .

فليس فى هذه القصة رمز ما ، وان كانت تفسيرا ساذجا لبعض مظاهر الطبيعة .

ومهما يكن من شيء فإن الباحثين فى الأساطير لم يتركوها بلا تفسير ، ومن الذين قالوا بأنها رمزية فلاسفة « إيونيا » وأخذ عنهم أفلوطين وغيره من فلاسفة الاسكندرية وهذا التفسير يقبل عندما يكون المؤلفون من الفلاسفة أو العلماء أو القساوسة الذين يمكن أن يقصدوا إلى الرمز وأن يجعلوا الاسطورة

---

(١) ولا تزال الجزر الصغيرة المنتشرة بين الهند وسيلان تسمى عند الأهالى « جسر راما » . وهى التى تسمى فى كتب الجغرافيا جسر آدم « وراماياتا » ملحمة هندية قديمة « كالماهابهاراتا » تحتوى كثيرا من أساطير الهند فى أصل العالم والخلق وفيها أساطير تاريخية وفلكية واجتماعية . « قصة الأدب فى العالم ج ١ ص ٤٨ »

شاملة للمغزى الدينى أو الفكرة الفلسفية التى يريدون توضيحها فى هذا الثوب من الأدب؛ لكن هذا النوع غير موجود فى عهود الأساطير الأولى .

وهناك مذهب ظهر فى القرن الرابع ق . م يعرف باليوهيميرية Euhemerism نسبة إلى الفليسوف اليونانى يوهيميرس Euhemerus وخلاصته أن الأساطير نشأت من التاريخ الحقيق . وأن الآلهة وكبار الأشخاص فيها كانوا ملوكا وأبطالا وأصبحوا آلهة بعد موتهم . ولكن هذا التفسير لا يمكن أن يشمل نشأة كل الأساطير التى ملأت العالم ولا علاقة لها بالتاريخ .

وقد قيل فى الأساطير إنها قصص موضوعة لتفسير الشعائر الدينية التى يتوارثها البدائيون ولا يفهمون لقيامها معنى . وأقوال أخرى (١)

ومما يلحق بهذه الأساطير قصص المسخ، أو تحول بعض الناس حيوانا بقوة سحرية مثلا ، روى لنا منها فى الأساطير الأغريقية قصة « باخوس » إله الخمر (٢) وخلاصة القصة أن باخوس قد أجر سفينة من قرصان « تيرينيا » لتنقله من مكانه إلى مكان، ولكنهم بدلا من أن يذهبوا به إلى غايته اتجهوا به إلى آسيا كى يبيعوه رقيقا . فحول الإله الشراع والمجاديف ثعابين، وصار أسدا وأنبت اللبلاب حول السفينة، وانطلقت أصوات الصفارات من كل جانب ، وجن جنون الملاحين جميعا ، ووثبوا إلى البحر ، ومسخوا دلافين .

وهذه تبين عقيدة الناس فيما يستطيع الآلهة أن ينزلوه من عقاب إذا أراد أحد بهم سوءا .

هذه الأساطير كانت عرضة للتغير بالزيادة والنقص الخ فى عصر الرواية

---

(١) قصة الأدب ص ١٢٣

(٢) Comus andLycidas by Milton P. 56

ولما عرف الناس الكتابة ودونوها أصبحت أقدر على الاحتفاظ بشكلها والبعد عن التغير إلا إذا كان قصدا .

والأساطير تنشأ من الادنى إلى الاعلى ، و تظل خاضعة للتحوير والتبديل (١) حتى تدون كما سبق . وعندئذ تدور دورة أخرى فتعود من الشعراء والأدباء إلى العامة .

٣ ـ الخرافات الحيوانية « Fables »

وتعرف هذه بأنها قصة يمثل الحيوان فيها دورا انسانيا (٢)

وفى مادة fable فى دائرة المعارف البريطانية (١) نجد دكتور جونسون Dr. Johnson يقول فى تعريفها « يبدو أن الخرافة فى أحسن وأدق حالاتها قصة تخترع فيها شخصيات غير عاقلة من الحيوان أو الجماد ، لغاية خلقية ، تمثل وتتكلم ، ولها عواطف ومشاعر كالناس » .

أما دائرة المعارف اليهودية (٤) فتعرف الخرافة «fable» بأنها قصة رمزية خلقية ، يمثل الحيوان أو النبات فيها أحيانا و يتكلم كالانسان » . والفرق بينها و بين قصة الحيوان (Beast-Tale) أن قصة الحيوان ليس لها مغزى ، وان قام الحيوان فيها بدور انسانى .

ويقول شارل أوبرتان (Ch. Aubertin) فى كتابه القيم «خرافات لافونتين Fables de Lafontaine (٥) » : إن كلمة خرافة أو Fable يمكن أن يكون لها معنيان : معنى عام ، وهو قريب من « قصة خيالية » ، ومعنى خاص ضيق ؛ وتدل

---

(١) Chamber's Ency مادة Mythology

(٢) Chamber,s Ency. vol, 1, P. 821 (مادة Beast-fable)

(٣) جـ ٩ ص ٢٠ مادة Fable

(٤) جـ ٧ ص ٢٣٤ مادة Fable

(٥) ص ١٩

الكلمة في معناها هذا على قصة قصيرة من الشعر أو النثر ذات تمثيل مسرحي، تمثلوه في أحسن الأحوال من الحيوان ، لكن طبيعة الانسان تبقى ظاهرة دائما ، وتبقى هي ملحوظا أبدا .

إن الخرافة بهذا المعنى ترجع إلى أصل قديم جداً ، إنها شكل من الأشكال الأولى للشعر، نوع من الأنواع المتعددة للفن الساذج الماهر في الوصف والقصص؛ وميزها طابعان خاصان يوضحان مبدأها ويكونان منشأها . ..

١) عالم الحيوان الذي أخذت منه شخصياتها ويجب أن يحتفظ بحقيقته وأن يمثل الحياة الحقيقية، أو الطبيعية المادية والخلقية لكل نوع ، ولا يسمح فيها لكائن رمزي أو خيالي محض أن يتدخل .

٢) ومن جهة أخرى هذه الكائنات الحقيقية ، أبطال القصة الخرافية تتصف بالعقل والنطق الانساني : فهي من الحيوان ولكنها أنصاف أناسي .

هذان هما العنصران اللذان يجب أن تجمع بينهما الخرافة ويستطيع المرء بالرجوع اليهما أن يعرف الخرافة أينما وجدت .

ونخرج من هذا بأن كلمة خرافة «Fable» لها معان متعددة(١)أنها قصة حيوانية لا مغزى لها «Beast Fable» (٢) أنها قصة حيوانية لها مغزى وعندئذ تساوي «Apologue» (٣) أنها تساوي قصة خيالية (Fiction) فهي أعم من قصة حيوانية .

ولكن المعنى الأدبي الاصطلاحي الذي يكاد يجمع عليه مؤرخو الأدب والنقاد ودوائر المعارف هو : أنها قصة حيوانية يتكلم الحيوان فيها ويمثل مع احتفاظه بحيوانيته ، ولها مغزى . ولا فرق عندئذ بينها وبين موعظة «Apologue» بالرغم مما ذكرته دائرة المعارف البريطانية من فرق بينهما(١)

أما استعمال كلمة « خرافة » العربية في هذا المعنى فهو استعمال صحيح

---

(١) ج ٩ ص ٣٠

وأرى كلمة خرافة أنسب كلمة عربية لكلمة Fable و Apologue معاً

جاء فى القاموس المحيط (١) أن الخرافة « حديث مستملح كذب . وربما كان مأخوذا من اسم رجل من عذرة استهوته الجن ، فكان يحدث بما رأى فيكذبوه . »

وفى اللسان (٢) « وذكر ابن الكلبى فى قولهم حديث خرافة — أن خرافة من بنى عذرة أو من جهينة اختطفته الجن، ثم رجع إلى قومه ،فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس فيكذبوه والراء فيه مخففة ،ولا تدخله الألف واللام لأنه معرفة ، إلا أن يراد به الخرافات الموضوعة من حديث الليل ، أجروه على كل مايكذبونه من الأحاديث ، وعلى كل ما يستملح ويتعجب منه » .

وأى حديث يستملح ويتعجب منه أكثر من حيوان ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويرمى إلى المعنى البعيد !

انها بهذا المعنى الأخير الذى جاء فى لسان العرب يمكن أن تطلق على كلمة Fable و Apologue, أيضا

وما لنا نحاول أن نثبت صلاحية كلمة خرافة لتدل على قصة الحيوان الحكيم الواعظ وقد استعملت فى هذا المعنى منذ زمن بعيد ؟ لقد استخدمها فى هذا المعنى ابن النديم إذ يقول فى كتابه الفهرست (٣) .

قال محمد بن اسحق : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الاول » .

وبعد أن يتكلم عن ابن عبدوس الجهشيارى وما حاوله من تأليف كتاب

---

(١) ج ٣ ص ١٣٢ (٢) ج ١٠ ص ٤١٢

(٣) ص ٣٠٤

فيه أسمار العرب والعجم والروم قال: « وكان قبل ذلك من يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة ، منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون، وعلى بن داود كاتب زبيدة، وغيرهم » .

وهذا نص صريح فى استعمال كلمة خرافة . ولا مانع إذن من استعمالها لتدل على هـــذين النوعين . فاذا خيف اللبس ـ وهو موجود فى اللغات الاجنبية ـ فلا مانع من إطلاق كلمة الموعظة على كلمة « Apologue » وذلك لانها تلزم المغزى الخلقى فى نهايتها . وقد استعمل صاحب « العيون اليواقظ » هذه الكلمة فى عنوان الكتاب فسماه « فى الحكم والامثال والمواعظ » ، وأصر عليها صاحب آداب العرب فى رأس كل قصة فسماها « عظة »

٣ ـ قصة الموعظة (Apologue)

وهذه خرافة قصيرة أو قصة رمزية، يراد بها أن تكون وسيلة لغاية خلقية، أو أن تنقل درسا نافعا . ومن أحسن المعروف من هذا النوع ماجاء عن « يوثام » Jotham فى كتاب القضاة (١) The Book of Judges وقد تحدث فيها يوثام إلى أهل شكيم فقال لهم (٢) « لقد ذهبت الأشجار يوما تختار ملكا عليها، فطلبت من شجرة الزيتون أن تحكمها فأبت. لأنها لاتريد أن تستعلى على الأشجار . وقالت الأشجار مثل ذلك لشجرة التين ، لكنها أبت قائلة : أأترك حلاوتى وثمرتى الجيدة وأذهب لأستعلى على الأشجار ! وقالت الكرمة مثل ذلك . فذهبن جميعا إلى الشوك ودعونه أن يحكمهن، فقال

(١) ج ٢ ص ١١٨

(٢) الإصحاح ٩ من آية ٧ — ١٥ ، وذلك لأن أخاه قد ملك البلاد قهرا وقتل كل إخوته إلا يوثام هذا فانه هرب ، وقال تلك الموعظة لأهل شكيم قبل هربه ، يشير إلى عدم صلاحية أخيه للملك ، وأنه يحكم قهرا ، وأن عاقبة الحاكم والمحكوم ستكون وخيمة

لهن : اذا أردتن ذلك حقا فتعالين ، وضعن الثقة فى ظلى . فاذا لم تفعلن فلتخرج النار من الشوك ولتلتهم كل أرز لبنان » .

ومنها كذلك فأر الحقل وفأر المدينة (١) وقد جاء الأول منهما زائرا للثانى فنغص القط عليهما الطعام وترك فأر الحقل الأكل .

وقال والقلب يذوب بالغصص لاخير فى اللذة يعلوها النغص .

ومن أمثلته أيضا « المعدة والأعضاء » (٢) وخلاصتها أن الأعضاء ضقن بجمع الطعام للمعدة ، ورأين أن الفائدة من الطعام تعود على المعدة ، فأضربن عن العمل ، فجاع الجسم كله وتألم . وقد ضربت مثلا للحكومة والرعية ، وأن كلا منهما يعمل لخدمة غيره ، وأن التعاون بينهما يؤدى إلى خيرهما معا .

وعلى هذا يكون الفرق بينهما من هذه الناحية غير موجود :

غير أن الخرافة تكون أقل تعقيدا وطولا مما تكون عليه « الموعظة » عادة . ثم إن هناك من الخرافات ما يخلو من المغزى الخلقى .

جاء فى دائرة المعارف البريطانية (٣) مايأتى : وتجد فى قصص الحيوان الاولى ، وهى الأصل المباشر لخرافات إيسوب ، أن القصة تروى لذاتها فقط وأنها خالية من كل مغزى ، وتضرب مثلا لذلك قصة الهنود المسطحى الرءوس فتقول : « وجد الذئب الصغير فى أرض السحاب أسياده العناكب بشعورهم الرمادية ، وأذنابهم الطويلة الملتوية ، وقد نسجوا له كرات من الخيط لينزل عليها إلى الأرض . فلما نزل وجد امرأته البطة المنقطة ، التى أخذها منه الذئب العجوز ، فهربت مضطربة ، وهذا هو السبب فى أنها تعيش فى الماء وتغطس

---

(١) ص ٢٩ العيون اليواقظ

(٢) ص ٨٩ العيون اليواقظ .

(٣) ج ٩ ص ٢٠ مادة Fable

منفردة حتى اليوم » هذه القصة ليس لها مغزى خلقى ، وهى أسطورة أكثر منها خرافة ، لتفسير طبع البطة وهو حبها للماء ونفورها من الذئب .

ويمكن أن نقول هنا شيئا عن الفرق بين الخرافة Fable بمعناها الاصطلاحى ، والأسطورة Myth فالاسطورة تنمو ولا تخترع . وتنشأ نشأة شعبية وهى إنتاج غير مقصود يخترعه الخيال الفطرى لتفسير بعض الحقائق أو الظواهر الكونية مثلا .

ويلاحظ أن كل هذه القصص التى سبقت الإشارة إليها من الأساطير والخرافات Fable وقصص المواعظ Aqologues لا تقتصر على الحيوان وإن كان موضعه فيها أبين من غيره ، والقصص التى وردت فيها عنه أكثر عددا

وكل هذه القصص نوع من الرمز أو التلميح فما هو الرمز ؟

التلميح أو الرمز

إنه صورة من صور التعبير تحمل معنى حرفيا ظاهرا وآخر مفهوما مستورا ، وتكون فى اللغة كما تكون فى غيرها كالنحت والرسم . ومن صور هذا الرمز تلك القصص الحيوانية ، فهى تتضمن قصة ، ووراء هذه القصة غاية ترمى اليها . على أن فى هذا الرمز أو التلميح فرصة لتعدد المغزى الخلقى .

وقد كثرت القصص الحيوانية من هذا النوع الرمزى فى عصور الحضارة أما الإنسان الأول فلم يكن يرى فيها رمزا ، بل كان يرى فيها حقائق ، لأنه كان ينسب إلى الحيوان طبيعة وروحا ومنطقا كالإنسان وكان يؤمن بالتناسخ والتحول ، ومثل هذا الإيمان يجعل ما نحسبه نحن رمزا ، حقائق عند الإنسان الأول .

وما زال كثير من القبائل البادية والمتأخرة عن الحضارة تقص القصص

الحيوانية التى لا مغزى لها ، كما تقص الخرافة ذات المغزى . والأول كثير والثانى علامة على البدء فى سلم الحضارة .

أما القصص ذات المغزى الخلقى فهى - على الرغم من قدمها - لم تنشأ إلا فى أمم تركت أطوار البداوة وفكرت تفكيرا مركبا ، لما تحتاج إليه القصة ذات المغزى من خيال يستطيع أن ينتقل من القصة إلى مغزاها .

ويرى « برتون » فى خرافات أيسوب أنها - على الرغم من قدمها (١) - من عمل عصور متحضرة . ولهذا كان فيها المغزى الخلقى والصورة الرمزية .

ومن الذين تحدثوا عن قدم الخرافة « شارل أو برتان » مؤلف « خرافات لافونتين » . فانه بعد أن مير الخرافه بأنها تحتوى على الحيوان المحتفظ بحقيقته ، والناطق بالحكمة فى الوقت ذاته قال (٢) :

« ومن السهل أن نفهم كيف نشأت فكرة الجمع بين هذين فى نفس الشعوب الفطرية ، فان الاتصال بين الانسان والحيوان كان أشد فى بدء تكون الجماعات الانسانية وكان الفرق بينهما أقل مما صار اليه فى عهود الحضارة . وكان الحيوان يقدم للانسان كثيرا من الأعمال الضرورية القيمة وكان ينقذه من كثير من الأخطار ، وفى تلك العهود المظلمة كانت بعض طباع الحيوان ودقة غرائزه تثير خيال الانسان ودهشته ، فنشأ من ذلك التآلف أن أقام الانسان بينه وبين الحيوان نوعا من المساواة والتشابه ، أو ظن ذلك على الأقل . فأى عجب بعد هذا فى أن ينقل الانسان الى عالم الحيوان كل الصفات الاجتماعية والسياسية والدينية الموجودة بين الناس » .

وليس فى هذا ماينقض الرأى الذى تقدم ، وهو أن الخرافة تكون من إنتاج العقل الانسانى بعد أن يتدرج فى التطور زمنا طويلا . فان عصر

---

(١) Chamber's Ency. vol. 1, P. 821.

(٢) ص ١٩

الجماعات الانسانية عصر قد بلغ فيه العقل مرحلة لا بأس بها من التطور ، على أن « أوبرتان » لم يعين لنا الوقت الذى تنشىء فيه تلك الشعوب الفطرية هذا النوع من الأدب وهو الخرافات . ولنا أن نتصور هذا العصر متأخرا جدا عن بدء اجتماعها ؛ وذلك عند استقرارها ، وملاحظتها لطباع الحيوان ، وأخذها من عالمه قصصا تشبه بعض ظروف الناس وتنطبق على أحوالهم . أما إلحاق المغزى بالقصة فهو عمل متأخر جدا وبخاصة فى القصص الاجتماعية والسياسية إذ أن تجارب الحياة وملاحظة الاخـــلاق العامة ، وسير الامور العادية من الاشياء التى يحتاج اليها قبل إنشاء تلك القصص ، وتتلو ذلك مرحلة التأليف والغاية الخلقية . ولاشك أن هذا متأخر ، عن بدء الاجتماع الانسانى .

أما القصص التى لامغزى لها ، والاساطير المتعلقة بتفسير ظواهر الكون السماوية والارضية فهى أسبق من هذه بلا شك لأن ضرورة رؤية هذه الاشياء تدعو إلى التساؤل والاجابة عن الاسئلة بشكل من الأشكال .

الفصل الثالث

موطنها الاول وتنقلها

ليس من السهل تحديد الموطن الاول لهذه القصص الحيوانية بمعناها العام إذ أنها فطرية — فهى إذا نوع من الادب قديم العهد بالوجود ، بل إنه من أقدم أنواع الأدب . وربما كان بعضه للتسلية وبعضه لتفسير مظاهر الطبيعة .

أما القصص ذات المغزى فهى التى تتنازعها مصر والهند واليونان وربما ضم إليها بلاد آشور وبابل .

ويمكن أن نستبعد اليونان أولا ، بسبب ظهور الحضارة فيها متأخرة عن بلاد الشرق . وأن أكثر من كتبوا عن منشأ الخرافات يقولون انها شرقية النشأة . (١)

يقول « ماكس مولر » Max Nuller أن خرافات أيسوب قد وجدت طريقها إلى اليونان فى زمن هيرودوت أو قبله . ويقول « رولنسون Rawlinson بأن هجرة الخرافات أولا كانت من الشرق الى الغرب لا العكس ويستدل على ذلك بأن الحيوانات والطيور التى تقوم بالادوار المهمة فى الخرافات ، حيوانات هندية فى الأغلب ، كالاسد والفيل والطاوس وابن آوى (وقد صار ثعلباً فى التراجم الاوروبية) والصلة بينه وبين الاسد شىء طبيعى فيقال انه يسعى على الاسد بطعامه أو يرشده الى مواضع الصيد ولكنها ليست كذلك بين الاسد والثعلب) ولا يستطيع الانسان أن يقرأ الادب

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة folk-tale

(٢) عالم لغوى انجليزى من اصل ألمانى (١٨٢٣ — ١٩٠٠)

الهندى بدون أن يحس إحساسا مستمرا بجو الغابات . (١)

ومما يجدر ذكره أن الخرافات كثيرة فى الادب الهندى القومى ، والعقل الهندوسى قدير عليها ، وعبقرية اختراعها لا تنفد عندهم ، بينما تجد أيسوب وحده عند اليونان . ومن أشهر القصص عندهم ، المملوءة بالفكاهة والحكمة العملية والشواهد المنتزعة من الحياة الشعبية فى صميمها ، تلك القصص التى جاءت عن مولد « بوذا » فى كتاب « جاتاكا Jataka » . وفيها عدد كبير من القصص الحيوانية . وفى كتاب الهند القديمة وحضارتها (٢)

« كثر البحث فى أصل الخرافات وقال بعض العلماء انه يونانى وقال بعضهم ولعل حجته أقوى — إن أصلها هندى . وقد كان هناك تبادل وتأثير من كلا الجانبين . ويظهر أن الهند أعطت أكثر مما أخذت . »

وقد جاء فى الكتاب بعد ذلك « أن البحث الآن فى هذه المسألة عبث . فليس هناك من يبحث عن مولد القصص والخرافات فى بلد واحد » ؛ ثم يرد على نفسه فيقول — لكن هناك فقط شعوب لها مقدرة على الاختراع أكثر من غيرها ، وأخرى لها امتياز فى الأدب . والخيال الهندى النشيط ، تغذيه الحياة الخاملة ، والجو الذى يساعد على الراحة والتأمل ، وجماعات الحجاج والشحاذين الذين كانوا يقصون القصص العجيبة السارة ، والاعتقاد الراسخ فى الهند أن الحيوان ليس شيئا مختلفا عن الناس ، وإن كان عاديا فى غيرها — كل هذه هيأت الأرض الصالحة لنمو الخرافات والقصص بكثرة .

وجاء فى كتاب « حكمة الهند . (٣) » الهند مهد القصص الحيوانية التى ترتبط دائما بايسوب العبد الأغريقى . وقليل ممن يشيرون إلى قصص

---

(١) The Wisdom of Inbdia P. 245

(٢) Ancient India and Indian Civilisation P. 373-478

(٣) The Wisdom ot India (ص ٢٤٥)

« إيسوب » يدركون أنه يمكن تتبع هذه القصص وإرجاعها إلى أصول بعيدة جدا فى الهند وذلك فى شكلها الخاص ونظامها وموضوعها » ،

وفى هذا الكتاب أيضا كلام منقول عن ايرنست رايس «Ernest Rhys» فى مقدمة ترجمته لايسوب ؛ يقول .

« علينا أن نسلم بأن قصص الحيوان لم تبدأ بايسوب ولا فى بلاد الأغريق ابدا . وعلينا فى الحقيقة أن نذهب إلى الشرق ، وأن ننظر إلى الهند لنقف على مبلغ قدم هذه القصص .

وترجع دائرة المعارف اليهودية (١) كثيرا من « خرافات ايسوب » إلى جاتاكا « Jataka » أو قصص ميلاد بوذا ـ التى سجلت كثيرا من تجاربه المختلفة فى حالات وجوده الأولى لما كان فى أشكال الحيوان والطيور والشجر . وجاء بعد ذلك « ومثل هذه القصص يحتمل جدا أن تكون المعين الطبيعى لحكايات أيسوب التى تظهر الحيوان بعواطف الناس وأفكارهم » .

ولكن دائرة معارف تشمبرز تروى « أنه كان لقصص الحيوان » مكانة مهمة فى مصر القديمة التى كانت فى درجة متقدمة من الحضارة ؛ جاء فيها : « ومن المحتمل أنها ظهرت هنا لأول مرة ، وأن إلف الناس لها كان ناشئا من الاحترام العميق الذى كان يكنه المصرى القديم للغريزة الحيوانية التى لاتخطىء . وقد مشى هذا الاحترام جنبا إلى جنب مع عبادة المصرى للحيوان ، التى طبعت دينه بطابع واضح » .

« ونحن نجد قصص بالسبع والفأر على ورقة بردى يرجع تاريخها إلى أيام رمسيس الثالث (١٢٠٠ — ١١٦٦ ق . م) لا كمحاولة أولية ، بل فى درجة نهائية تدل على أنها تجاوزت هذه المراحل الأولى . » (٢)

---

(١) The Jewish Ency. vol. 1, P. 221

(٢) Chamber,s Ency. Beast Fables. v. 1, P. 821

ويرى « سير رتشرد برتون (Sir Richard Burton) أن القصص الوعظية Apologues خرجت من بلاد النيل أو الأرض ـ السوداء Black Land إلى فينيقيا وجوديا وفريجيا وآسيا الصغرى ثم اجتازت البحر فى سفينة إلى بلاد اليونان . وهنا وجدت طريقها إلى من عرف الناس بها وهو « أيسوب Aesop » الذى يعتبر إسمه خرافة ترتبط بالأثيوبيين (١) وربما كان زمنه هو زمن المشروع صولون (٥٧٠ ق . م) ويشير إلى هجرة أخرى لهذه القصص إلى الشرق حتى وجدت مستقرا فى حوض الدجلة والفرات . وقد كان الاتصال بين مصر وبين كل تلك البلاد قائما ، فتارة تغزو مصر هذه البلاد وتستولى عليها ، وتارة تغزوها هـــذه البلاد وتحكمها . فقد غزاها الهكسوس وأقاموا بها من (١٦٧٥ - ١٥٨٠ ق . م) ثم طردتهم وغزت الشام ، ووصلت سيطرة تحتمس الثالث (١٤٧٩ - ١٤٤٧ ق . م) إلى وادى الفرات ، وأعلن الحيثيون والآشوريون والبابليون ولاءهم له . وهذا زمن متأخر جدا فى تاريخ مصر القديمة . فمصر ذات الحضارة التى تسبق اليونان بآلاف السنين ، قد سبقت إلى هذا النوع من الأدب ويكفى فى الدلالة على ذلك ماقدمناه من دليل مادى ، فى درجة عالية من التقدم وهو قصة السبع والفأر فضلا عن الاتصال المستمر بينها وبين البلاد التى تجاورها ، ووصول حضارتها إلى بلاد اليونان ، ومجىء اليونانيين إلى مصر للاستفادة منها فى كثير من النواحى ؛ ولقد قدم « صولون » إلى مصر فى أيام أحمس الثانى ويقال إنه اقتبس شيئا من قوانينها » . وقد كان أيسوب معاصرا له . وكانت شهرة مصر عامة . فما الذى يمنع من انتقال مثل هذا الأدب المدون على الأقل ؛ أن لم ينقل معه شىء من الأساطير والخرافات الشعبية إلى بلاد اليونان . ؟

---

(١) يظن أن اسمه مشتق من كلمة Ethiopia ومعناها الحبشة وأن هذا وصف لا اسم .

إذا كان أكثر العلماء قد تحدث عن الخرافات الهندية على أنها أصل للخرافات اليونانية وتركوا مصر ، فالسبب فى هذا واضح جدا ؛ إذ أن الذين أكثروا القول فى هذا هم علماء أوربا ولهم عذرهم . فقد عرفوا أدب الهند منذ الاسكندر ، وعرفوه عن طريق تراجم كليلة ودمنة . وعرفوه عن طريق اتصالهم بالهند اتصالا مباشرا منذ القرون الوسطى ؛ وشغلوا أنفسهم بدراسة الأدب الهندى واللغات الهندية ، وعقدوا مقارنات بين الخرافات الهندية وبين قصص أيسوب ومن تبعه من أدباء الخرافات فى اليونان والرومان . ولم يكن عندهم أى خبر عن حضارة مصر القديمة التى كانت تخفيها حنايا القبور وجدران المعابد . وربما أدت الكشوف والابحاث فى مخلفات القدماء المصريين إلى تأييد الأقوال التى سيقت بجانب البرهان المادى وهو قصة السبع والفأر المشار اليها سابقا .

وقد وجد أيضا فى الكتابات المسمارية القديمة قصص حيوانية (١) وجد منها أربعة أمثلة فى مكتبة آشور بانيبال (٢) — أول قصة منها عن أعمال النسر والثعبان ، والثانية عن الثعلب والضبع ، والثالثة عن محاورة بين حصان وثور ، والرابعة تشتمل على عجل يتكلم — ولكن هذه متاخرة أيضا عن قصة السبع والفأر بحوالى ستمائة عام .

---

(١) Chamber,s Ency. vol. 1, P. 821

(٢) آشور بانيبال من ملوك آشور حوالى منتصف القرن السابع ق . م وقد غزا مصر واستولى عليها . ومن آثاره مكتبة عظيمة فى المتحف البريطانى منها الآن حوالى ٢٢ ألف لوح وموضوعاتها دينية وعلمية وأدبية (ص ٦٣ كتاب التاريخ القديم — شفيق بك غربال وآخر)

(٣) The Wisdom of India طبعة ١٩٤٨ ص ٢٤٥

الفصل الرابع

غاية القصة الحيوانية

قدمنا أن من القصص الحيوانية أساطير وخرافات أو قصص ذات مغزى

أما الأساطير فمنها مايكون تفسيرا لخلقة بعض الحيوان أو أخلاقه مثلا ، أو تفسير البعض الظواهر الكونية وذلك كأسطورة الضب والضفدع عند العرب ، وخوف الغراب ، المنقول اليهم من اليهود ، واشتراك القرود مع « راما » فى حربه ضد ملك سرنديب والقائها الأحجار فى المضيق الذى بين الهند وسرنديب؛ لتفسير نشأة الجزر فى ذلك المكان . والموضوع الذى يهمنا الآن أكثر من غيره هو القصص ذات المغزى فى شكليها الخرافة Fable والموعظة Apologue وإذا رجعنا الى تعريفها فيما تقدم وجدنا الغاية الخلقية التى يتضمنها المغزى جزء من التعريف.

يحاول بعض الباحثين بحوثهم أن يحيطوا نشأة هذه القصص بظروف خاصة ، وأنها انما تنشأ فى عهود الظلم والاستبداد ، عندما يكون التصريح بالحقيقة جالبا لغضب الملوك والرؤساء . وقد يستدلون على ذلك بأن من أشهر كتاب هذه الخرافات قوم من الارقاء والعبيد والموالى ، وينتقلون من مركز هؤلاء المؤلفين فى المجتمع الى نتيجة يرونها منطقية ، وهى أن هؤلاء المؤلفين ، بصفتهم هذه ، لم يستطيعوا أن ينصحوا لسادتهم خوفا من بطشهم ، آثروا الرمز لما فيه من بعد عن جفاف الحقيقة ، وإثارة غضب الرؤساء .

يقولون ان « ايسوب » كان عبدا ، وكان « فيدر » الرومانى عبدا أيضا ، كان « لقمان » الحكيم عبدا حبشيا ، وكان ابن المقفع مولى فارسيا . وهؤلاء

أشهر من نسبت اليهم الخرافات .

وتقول دائرة المعارف البريطانية [١] « ان منشأ الموعظة قديم جدا فى الشرق، فقد كانت الحقيقة المقنعة شيئا ضروريا هناك وخصوصا عند الارقاء الذين لم يجرءوا على اظهار ما فى نفوسهم بصراحة . ومن الملاحظ أن أول من تبنى الموعظة فى الغرب اثنان من الارقاء هما ايسوب وفيدر « Phédre »

ويرى « بيرتون » [٢] أن بعض القصص ذات المعنى الرمزى تنشأ فى عصور يكون الحاكم فيها طاغية غيورا أو مستبدا قويا ، يضع الصعوبات والأخطار فى طريق الحديث بالحق الصريح . وننقل عنه قوله فى أسباب اختراع حكاية الحيوان: « والخطر فى توجيه اهانة صريحة الى حاكم اسيوى مستبد ربما كان من أسباب اختراع حكاية الحيوان التى يقصد فيها أن يكون الدرس الخلقى مستورا فى ثناياها » .

وقد جاء فى الوسيط [٣] عن الأمثال الفرضية أنها تكثر « فى الأيام التى يكثر فيها الجور والاستبداد والتضييق على الهداة والمرشدين ، فيضطرون اليها للوصول الى أغراضهم ، مع الأمن على حياتهم ؛ على مافيها من ترويح الخاطر . ولطف المدخل وجمال الفكاهة المنطوية فى تضاعيفها النصيحة وذلك أعمل فى النفس وأدعى الى الاتعاظ » .

ويقول أحمد بك أمين فى ضحى الاسلام [٣] « وتبينت الحاجة الشديدة الى هذا النوع فى عصور الاستبداد ، يوم كان الملوك والحكام يضيقون على الناس أنفاسهم ، فلا يستطيع ناقد أن ينقد أعمالهم ولا واعظ أن يومىء

---

(١) Chamber's Ency. مادة Fable

(٢) ص ١٧

(٣) ج ١ ص ٢٢٣

بالموعظة الحسنة اليهم ففشا هذا الضرب من القول والقصص ، يقصدون فيه الى نصح الحكام بالعدل ، وكأنهم يقولون : إذا كانت الحيوانات تقمت الظلم وتحقق العدل فأولى بذلك الانسان . واذا كان الولاة والزعماء تأخذهم العزة بالاثم ويستعظمون أن يصرّح لهم بنصح أو نقد ، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهائم . واذا كان فى التصريح تعريض الحياة للخطر ، ففى التلميح نجاة من الضرر » .

وفى دائرة معارف تشمبرز(١) قصة اقتبسها مستر كلاوستون Clouston من مؤرخ شرقى فى عهد حاكم ظالم أصلحته مثل هذه الوسيلة والقصة هى : « يحكى أن وزيرا عاقلا لبقا قص على مولاه - قال - إن بومة كانت فى البصرة وأخرى فى الموصل ، ورغبت الأولى منهما أن تزوج ابنها من بنت الثانية فأجابتها بومة الموصل بالموافقة ، وشرطت أن يكون المهر مائة قرية خراب ، فأجابتها بومة البصرة : لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن . فاذا أبقى الله السلطان عاما آخر قدمت لك هذا المهر » .

فلما سمع السلطان هذه القصة تأثر بها أشد التأثر ، وأمر فى الحال أن تعمر كل القرى والمدن الخراب ، ودرس حالة بلاده ليرفع مستوى الحياة عند الشعب ، وليجعل حكمه سهلا مرضيا .

ونرى من كل ما تقدم من الأقوال أن هؤلاء ينسبون نشأة القصص الحيوانية ذات المغزى ، أو شيوعها ، الى ظلم الطغاة واخفاء الحقيقة عنهم فى صور الرمز وتقديم النصيحة اليهم مقنعة . وأن أهم من تنسب اليهم الخرافات كانوا من العبيد . فهم أولى الناس بالخوف من سادتهم وليس لهم من يحميهم . لهذا آثروا هذا الشكل من الموعظة .

والحق أن رق هؤلاء المؤلفين محض صدفة . وأن أولئك الطغاة الذين

---

(١) مادة Fable

يراد إخفاء الحقيقة عنهم إما أن يكونوا من الأذكياء — وجدير بهم أن يكونوا كذلك — فلا تخفى عليهم أغراض المؤلفين . وإما أن يكونوا على درجة من السذاجة والغفلة والغباوة تمنعهم من فهم مايريده أولئك المؤلفون، وحينئذ لاتتحقق الفائدة التى يريدها الحكماء ، رمزا أو تصريحا .

ثم ان هناك من القصص الحيوانية ما لا صلة له بالملوك ولا بسياسة الحكم ولا بنقد ذوى السلطان . وهذه لاتحتاج إلى عصور ظلم تنشأ فيها .

ولكن يظهر أيضا من تاريخ هذه القصص ومن مؤلفيها ومن أنواعها عامة انها توضع اما للتسلية، وذلك فى بعض القصص والأساطير التى لامغزى لها، واما أن تكون شكلا جميلا من أشكال الأدب يراد به التنويع فى تقديم الدروس الأخلاقية، ويقصد به البعد عن جفاف الموعظة الصريحة، وتقديمها فى ثوب لطيف ترتاح إليه النفس ، وتتقبله بقبول حسن .

وقد قال «أوبرتان» فى ذلك: «ومن يدعى أن الخرافة قد أنشأها مؤلفون من العبيد، يكرهون سادتهم، أو من المحكومين الخاضعين الذين يرغبون فى وعظ الطغاة بما يثقل على نفوسهم ؛ انما يضيق ميدانها الفسيح ، ويحصر عمل الخيال الانسانى فى دائرة ضيقة » وهذا أيضا يتعارض مع نشأتها وتنوعها .

ولو صح ماجاء فى مقدمة كليلة ودمنة منسوبا الى دبشليم ملك الهند لكان حجة على من يقولون إن الرمز يراد به نصح المستبدين خوفا من بطشهم . فقد جاء فى هذه المقدمة (١) أن دبشليم قال لبيدبا : «وقد أحببت أن تضع لى كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك، يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته (٢) .

ثم قال له عن الكتاب « وليكن مشتملا على الجد والهزل ، واللهو والحكمة والفلسفة » .

---

(١) طبعة سنة ١٩٣١ — ص ٣٦ كليلة ودمنه (٢) ص ٣٧

وقال ابن المقفع فى باب عرض الكتاب كلاما فى اختيار هذا النوع من التأليف ختمه بقوله: (١) .

« ينبغى للناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض : أحدها ماقصد الى وضعه على السنة البهائم غير الناطقة؛ ليسارع الى قراءته أهل الهزل من الشبان فتستمال به قلوبهم . لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوان. والثانى اظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ، ليكون انسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة فى تلك الصورة . والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل ، فيخلق على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدا ، والغرض الرابع وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » .

وهذه النصوص من « أوبرتان » ومن ابن المقفع صريحة فى أن قصص الحيوان الخلقية لم تنشأ فى عهود الظلم والاستبداد فقط، وأنها لاترتبط بالعبيد إلا بمحض الصدفة ، وان دبشليم - الطاغية المستبد أولا - هو الذى طلب من بيدبا قصصا ، يكون ظاهرها سياسة العامة وتأديبها الخ . وأن ابن المقفع حينما أشار الى الغرض من الكتاب لخصه فى أربعة أشياء . أولها يتعلق باستمالة قلوب أهل الهزل من الشبان ، والثانى تسلية الملوك لكونه على هذه الصورة، والثالث يتعلق بالكتاب نفسه ، وهو التوصل بهذه الوسيلة إلى ذيوعه وخلوده . والغرض الرابع ، الذى يستدل به بعض القائلين بذلك الرأى ، ليس صريحا فى الدلالة على رأيهم؛ فهو غامض ، وقد فهموا منه أن الفيلسوف يفعل ذلك لينجو من الشر بهذه الطريقة الرمزية . وقد أشرت الى ضعف هذا الرأى . اذا أخذ على عمومه (٢) .

---

(١) ص ٧٣

(٢) أشار إلى مرماه ضحى الاسلام ج ١ ص ٢١٩ مع شىء من الشك والحذر

لكن هناك بعض الحق فى هذا الرأى، فان القصص الرمزية قد تكون احتيالا على قانون العقوبات مثلا ، وقد تكون وسيلة لطيفة لاستمالة قلوب الملوك ؛ أو لعلها، بما فيها من سخرية وتهكم ، وبما فيها من معنى المقارنة بين الإنسان والحيوان ، قد تخيف أولئك الملوك من هذه السخرية ، وتحملهم على الترفع عن الظلم كى لا يكونوا أقل من الحيوان .

وننتقل الى الكلام عن قصص الحيوان عند العرب مبتدئين بخلاصة لبيان صلتهم به وعقائدهم فيه .

الفصل الخامس

صلة العرب بالحيوان وعقيدتهم فيه

رأينا فيما تقدم أن بعض الناس عبدوا الحيوان لذاته ، أو لأن روح الاله حلت فيه ، أو لأنه أبوهم الذى ولدهم . ورأيناهم أيضا يعتقدون أن الأرواح تنتقل بين الناس والحيوان ، وأن هذه الارواح قد تكون فى شكل حيوان أيضا .

واذا أردنا أن نطبق هذه العقائد السابقة على العرب فى جزيرتهم لم نجد هناك دليلا على عبادتهم للحيوان . ولا أنهم آمنوا بالتناسخ أو قالوا بالطوطمية . وأظهر ماجاءنا عن معتقداتهم انهم قدسوا الحيوان فى ظروف معينة ، وأكبروه لبعض الصفات ، وظهرت آثار هذا الاكبار والتقديس فى تحريمه فى هذه الظروف وفى تقديمه قربانا لبعض الآلهة .

إنهم حرموا ركوب الناقة وحلبها إذا نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر وشقوا أذنها ، وسموها البحيرة

وكان الرجل منهم يقول — ان شفيت فناقتى سائبة ، ويجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها .

واذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، وأن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ، وإن ولدتهما معا قالوا وصلت أخاها فلا يذبح ، وتلك هى الوصيلة .

وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره ، ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى ، وقالوا قد حمى ظهره ، وسموه الحامى [1]

---

(١) تفسير البيضاوى . سورة المائدة آية ١٠٣ فى تفسير : « ماجعل الله من بحيرة . . . الخ »

فقال تعالى يبطل هذه الأعمال وينفي نسبتها إليه .

« ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » .

وقد جاء في كتب التفسير الأخرى شروح متعددة لهذه الكلمات ، ولكنها لاتخرج في غايتها عن أن تكون تحريما لبعض الحيوان لصفات خاصة فيه وفي ظروف معينة . وروى الألوسي صاحب بلوغ الأرب بعض هذه الشروح وقال[1] . « وقد نسبت هذه المذاهب إلى رجل من العرب يسمى عمرو بن لحي الخزاعي ، وأنه حمل العرب على التدين بها في جملة ما أحدث من المنكرات التي لم يكونوا يعلمونها من شريعة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . وقد أبطلت الشريعة الإسلامية هذه المذاهب » .

ونسبة هذا كله إلى رجل واحد في تلك البلاد المتباعدة الأطراف الصعبة الطرق ، نسبة مشكوك فيها ، وربما كان ابن لحي هذا صاحب عمل من هذه الأعمال ، ثم نشأ غيره يشبهه بعد زمن ، أو في مكان غير المكان ، ثم نسبت كلها اليه .

وعدم اتفاق المفسرين على مدلول هذه الكلمات يدل على أنها ظهرت بأشكال مختلفة ، في أماكن مختلفة ، أو أزمنة مختلفة . والقرآن قد حرم مدلول الكلمات بأي شكل من أشكاله ، وجاء المفسرون فاستقوا معاني هذه الكلمات من مصادر مختلفة فتعددت الشروح من أجل ذلك .

وقد ورد في سورة الانعام أنهم كانوا يجعلون لله نصيبا ، ولآلهتهم نصيبا فينفقون الأول على الاضياف والمساكين والثاني ينفقونه ويذبحونه عند آلهتهم . وقد يكون ماعينوه لله خيرا وأزكى ، فيجعلونه لشركائهم ولا يفعلون العكس . فقال تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا

---

(١) ج ٣ ص ٣٦ بلوغ الأرب

فقالوا هذا لله بزعمهم . وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون[1] » . وأحلوا بعض الانعام والحرث وحرموا بعضها ، وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء » . يعنون خدم الاوثان والرجال دون النساء « بزعمهم » . من غير حجة . « وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء » . يكون شركة بين الذكور والاناث « سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » ونبه في سورة النحل على أن هذا وغيره من التحليل والتحريم كان من عندهم ، وأنه كذب ، فقال تعالى « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب . إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون »[2]

وهناك أشياء أخرى حرموها لم ترد في القرآن صريحة . ومن ذلك الفرع وهو أول نتاج الابل والغنم : كان أهل الجاهلية يذبحونه لاصنامهم ثم يأكلونه ويلقى جلده على الشجر . ومنها العتيرة[3] : وهي ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب ، يتقربون بها لأصنامهم ، وهي الرجبية ، ويصب دمها على رأس الصنم . ومنها ذبح الظبي : وكان الرجل ينذر إذا بلغت إبله أو غنمه مبلغا ذبح عنها . فاذا بلغت ما أراد ضن بها ، واصطاد ظبيا فذبحه وفاء للنذر . ومنها حبس البلايا : كانوا اذا مات الرجل يشدون ناقته الى قبره ، ويعكسون رأسها بولية وهي البرذعة ، فان أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى .

---

(١) تفسير البيضاوي (٢) تفسير الآية في سورة النحل

(٣) الفرع والعتيرة من بلوغ الأرب ج ٣ ص ٤٠ ، وما بعدها من نهاية الارب ج ٣ ص ١٢٠ .

ويزعمون أنهم انما يفعلون ذلك ليركبها صاحبها فى الميعاد ليحشر عليها . وقال عويمر النهائى لابنه :

أبنىّ لا تنسَ البلية إنها لابيك يوم نشوزه مركوب

وليس فى هذا كله ، مايدل على عبادة الحيوان ، ولا على أنه أصل لقبيلة من القبائل أو أن روح الالهة حلت فيه .

وقد جاء فى القرآن تحريم لبعض الحيوان حيا أو ميتا . فقد حرّم صيد البر على المحرم «وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما »(١) وحرم الاصناف المذكورة فيها يأتى «حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ، إلا ما ذكيتم وما ذبح على النُّصب (٢) »

وظاهر أن تحريم هذه الاشياء كان لذاتها ، أو لفساد لحمها ، أو لما فى الظروف الملابسة لذبحها من معنى الاشراك . وليس فى هذا شىء من تناسخ أو حلول أو طوطمية .

ولكن هناك ما يشبه التناسخ .

فقد روى عن الجاحظ (٣) « ان الضب حرمه قوم ورأوا أن أمتين مسختا ، إحداهما فى البر وهى الضباب ، والاخرى فى البحر وهى الجرّىّ (٤)

ورووا عن بعض الفقهاء انه « رأى رجلا أكل لحم ضب فقال : اعلم انك قد أكلت شيخا من مشيخة بنى اسرائيل » وقال بعض من يعافه : الذى « يدل على انه مسخ شبه كفه بكف الانسان »

ثم يقول الجاحظ « ولم أر أهل الكتاب يقرون أن الله تعالى مسخ

---

(١) آية ٩٦ سورة المائدة و (٢) آية ٣ سورة المائدة .

(٣) الحيوان ج ٦ صفحة ٢٤ طبع الساسى .

(٤) نوع من السمك .

إنسانا خنزيرا ولا قردا، إلا أنهم أجمعوا على أن الله تعالى قد مسخ امرأة لوط حجرا حين التفتت . وتقول الأعراب أن الله قد مسخ كل صاحب مكس وجابي خراج وإتاوة، إذا كانا ظالمين . وانه مسخ ماكسين أحدهما ذئبا والآخر ضبعا . وأنشد محمد بن السكن المعلم النحوى للحكم بن عمرو البهرانى فى ذلك وفى غيره شعرا عجيبا وقد ذكر فيه ضروبا كلها ظريف وكلها باطل، والاعراب تؤمن بها أجمع ، وكان الحكم هذا أتى بنى العنبر بالبادية ، على أن العنبر من بهراء ، فنفوه من البادية إلى الحاضرة ، وكان يتفقه ويفتى فتيا الاعراب ، . ثم أورد له الشعر العجيب المشار إليه وأوله :

إن ربى لما يشاء قدير ما لشىء أراده من مفسر
مسخ الماكسين ضبعا وذئبا فلم ذا تناجلا أم عمرو

ويقول[1] « فإن ملوك العرب كانت تأخذ من التجار فى البر والبحر ، وفى أسواقهم المكس، وهى ضريبة كانت تؤخذ منهم، وكانوا يضمنونهم فى ذلك»

ثم يعلق على ذلك بقوله « والأعراب تزعم أن الله تعالى لم يدع ماكسا إلا أنزل به بلية ، وانه مسخ منهم اثنين ضبعا وذئبا فلهذه القرابة تسافدا وتناجلا ، وإن اختلفا فى سوى ذلك ، ومن ولدهما السمع والعسبار ، وإنما اختلفا لأن الأم ربما كانت ضبعا والأب ذئبا، وربما كانت الأم ذئبة والأب ذيخا ، والذيخ ذكر الضباع .

ومما أورده الحكم البهرانى قوله . —

مسخ الضب فى الجدالة[2] قدما وسهيلَ السماءِ عمدا بصقر

فانهم يزعمون أن الضب وسهيلا كانا ماكسين عشارين، فمسخ الله أحدهما

---

(١) جـ ٦ ص ٤٤
(٢) الجدالة.

فى الأرض والآخر فى السماء . ومنهم من يزعم أن سهيلا والزهرة والضب والذئب والضبع (١) كلها مسوخ .

وظاهر أن قول « بعض الفقهاء » السابق تهكم ممن أكل لحم الضب . وظاهر أيضا أنه تهكم بفكرة شائعة عن الضب وهى أنه مسخ إنسان . وقوله للرجل : « اعلم انك أكلت شيخا من مشيخة بنى اسرائيل » فيه إشارة إلى أن الفكرة يهودية .

وقول الجاحظ : « ولم أر أهل الكتاب يقرون أن الله تعالى مسخ إنسانا خنزيرا ولا قردا » دليل على أن فكرة المسخ هذه منقولة إلى العرب (٢) .

أما مسخ الماكسين ضبعا وذئبا ، فليس عقيدة ، ولكنه نوع من التشهير بجباة الضرائب ، لما يراه الناس فيهم من ظلم أحيانا ، ومن أن عملهم ثقيل على أصحاب الأموال أيضا . وكذلك القول فى نجوم السماء (٣) .

فليست هذه عقيدة عند العرب ولا مذهبا من مذاهبهم كما تراها عند الهنود ؛ فإنها فكرة عامة شائعة فى البوذية تجرى على جميع الخاطئين ، لا على جباة الضرائب فقط .

تشكل الجن بأشكال الحيوان .

ويروى الأعراب قصصا عن تشكل الجن بأشكال الحيوان ، واتخاذ الجن من الحيوان مطايا . ولهم فى صلتهم بالجن أخبار كثيرة ، تروى منها قصة لها علاقة بموضوعنا من الناحية الأدبية وناحية الغاية التى نقصد اليها . تلك هى قصة عبيد بن الأبرص مع الثعبان :

---

(١) بلوغ الارب ج ٢ ص ٣٦١ — الحيوان ج ٦ ص ٦١

(٢) انظر قول الله تعالى « وجعل منهم القردة والخنازير » من آية ٦٠ سورة المائدة ، وتعليق المفسرين يشير إلى أنه كان هناك مسخ لليهود من أصحاب السبت أو غيرهم

(٣) انظر الحيوان ج ٤ ص ٦٩ تحقيق هارون

فقد جاء فى مقدمة جمهرة أشعار العرب عن عبيد[1]، أنه خرج يوما فى ركب، فبينما هم يسيرون إذا بشجاع احترق جنباه من الرمضاء، فقال له بعض أصحابه : دونك الشجاع ياعبيد فاقتله ! قال عبيد — هو إلى غير القتل أحوج. فأخذ إداوة من ماء فصبها عليه ، فانساب الشجاع ودخل فى جحره . وسار القوم فقضوا حوائجهم . ثم أقبلوا حتى صاروا إلى ذلك الموضع الذى فيه الشجاع . قال فتأخر عبيد لقضاء حوائجه، فانفلت بكره فسار القوم وبقى عبيد متحيرا ، فاذا بهاتف من عدوة الوادى يقول : —

يا صاحب البكر المضل مركبه	دونك هذا البكر منا فاركبه
ما دونه من ذى الرشاد تصحبه	وبكرك الاخر أيضا تجنبه
حتى إذا الصبح تجلى غيهبه	فحط عند رحله وسيبه
إذا بدا الصبح ولاح كوكبه	وقد حمدت عند ذلك مصحبه

قال فالتفت عبيد فاذا هو ببكره وبكر إلى جنبه ، فركبه ، حتى إذا صار إلى دار قومه أرسل البكر ، وأنشأ يقول : —

ياصاحب البكر قد أنقذت من بلد	يحار فى حافتيها المدلج الساري
هلا أبنت لنا بالحق نعرفه	من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
ارجع حميدا فقد أبلغت مأمننا	بوركت من ذى سنام رائح غادى

فأجاب هاتف يقول

أنا الشجاع الذى ألفيته رمضا	فى رملة ذات دكداك وأعقاد[2]
فجدت بالماء لما ضن حامله	جودا على ولم تبخل بانجادى

---

(١) ص ٢٧ .

(٢) دكداك — رمل غليظ فيه تلبد . اعقاد جمع عقد وهو ما تعقد وتراكم من الرمل

هذا جزاؤك منى لا أمن به فارجع حميدا رعاك الله من غادى
الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد.

والقصة أسطورة لا شك فى هذا . وفى آخرها تختلط الأسطورة بالموعظة ، والرجز فيها مضطرب سقيم ، خارج على ما ألفه من قواعد اللغة خروجا واضحا . من أجل هذا شك أبو الفرج الاصفهانى (١) فيها وقال «وهو خبر مصنوع يتبين التوليد فيه» .

ومن الطبيعى أننا لا نصدق وقوع مثل هذه الحوادث على ما روى به وتلك الأخبار أدخل فى باب الوهم منها فى باب الحقائق . وإن كنا لا ننكر وجود الجن وظهورهم لبعض الناس .

والجاحظ (٢) كعادته ينكر مثل هذا ويقول عن الاعراب : «ما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به ، ومد لهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيا مثلهم ، وإلا غبيا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب أو التصديق أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت فى هذه الاجناس قط ؛ وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر ، فالرواة عندهم كلما كان الاعرابى أكذب فى شعره كان أظرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثه أكثر . لذلك صار بعضهم يدعى رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها» .

وبعد أن تحدث عن مراكب الجن من الحشرات والوحش ، وايثارها لبعض ، ونفورها من بعض ، قال (٣) «وحدثنى أبو نواس قال بكرت الى

---

(١) أغانى جـ ١٩ ص ٨٩ طبعة الساسى ترجمة عبيد .
(٢) الحيوان جـ ٦ ص ٧٨ طبعة الساسى .
(٣) الحيوان جـ ٦ ص ٧٤

المرتد ومعى الوالى أطلب اعرابيا فصيحا ، فاذا فى ظل دار جعفر اعرابىٌّ لم أسمع بشيطان أقبح منه وجها ، ولا بانسان أحسن منه عقلا ، وذلك فى يوم لم أر كبرده بردا ، فقلت له : هلا قعدت فى الشمس ، فقال الخلوة أحب الى فقلت له مازحا : أرأيت القنفذ إذا امتطاه الجنى وعلا به فى الهواء هل القنفذ يحمل الجنى أم الجنى يحمل القنفذ ؟ قال هذا من تكاذيب الاعراب .

إن ماجاء من هذه القصص على ألسنة الرواة والشعراء يمثل الفكرة العامة التى كانت شائعة بين الناس عن قدرة الجن على التشكل بأشكال الحيوان واستخدامها لهذا الحيوان ، ولقائها للناس ، وخدمتها لهم جزاء معروفهم ، أو أصابتهم بالشر إذا أساء الناس .

ومن عقائدهم أيضا أن القتيل اذا قتل خرجت من رأسه هامة تقول : اسقونى فانى صدية . وتظل كذلك حتى يؤخذ بثأره (١) . وقال بعضهم (٢) إنها النفس ، وانها طائر ينبسط فى الجسم . فاذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم ، وهو أبدا مستوحش ، ويوجد فى الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور . وانها لم تزل عند ولد الميت وخلفه ، لتعلم ما يكون بعده فتخبره .

وقيل الهامة أنثى الصدى وهو ذكر البوم . ولهم فى الهامة والصدى أشعار منها قول ذى الاصبع :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى (٣)

وقول توبة بن الحميّر صاحب ليلى الاخيلية :

---

(١) بلوغ الارب جـ ٢ ص ٣١١

(٢) نقلا عن مروج الذهب للمسعودى .

(٣) الامالى جـ ١ ص ٢٥٦ .

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت على ودوني جندل وصفائح (٤)
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا اليها صدى من جانب القبر صائح

وقول المجنون :

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الارض سبسب
لظل صدى رمسي وإن كنت رمة لصوت صدى ليلى يهش ويطرب (١)

ومفهوم من أسطورة الهامة أنها نشأت لتفسير تمسكهم بالثار ، وأخذهم به حتى ترضى هذه الهامات عن أهل الميت ، وحتى يستريح هو فى قبره . وهى تشبه فى تفسير المسعودى لها ما يشيع عند كثير من الأمم من عقائد عن النفس الإنسانية وأنها طائر أو حشرة . وإذا كانت هذه الفكرة قد أدت عند بعض الأمم إلى إنتقال الأرواح من أجسام إلى أجسام ، فانها لم تتجاوز المطالبة بالثأر عند العرب .

وهذه أسطورة تفسر خلقة بعض الحيوان .

قد جاء فى شبه السنور بالأسد (٢) أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بالفأر وشكوا ، سأل ربه الفرج . فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن والانثى من المنخر الأيسر فكفاهم مؤونة الجرذان .

وقالوا أيضا إن الخنزير يشبه الفيل لمثل هذا السبب (٣) .

وأسطورة السنور تفسر سبب العداوة بينه وبين الجرذ أيضا .

والجاحظ ينكر هذا ويسخر منه كما هى عادته فى مثل هذه الأساطير ، ولكنا نقرر ما كان عند القوم من أساطير عن الحيوان تتعلق بخلقته أو

---

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٣

(٢) حيوان ج ١ ص ١٤٦ هارون

(٣) حيوان ج ٥ ص ١٠٦ طبعة الساسى

بأخلاقه وإن أبى العقل الآن هذه الأساطير .

ومن أساطير العداوة بين الناس والهوام ماجاء عن الوزغ وكراهة الناس له .

« قالوا إن أباها لما صنع فى نار ابراهيم وبيت المقدس ماصنع أعمه الله وأبرصه فقيل « سام أبرص » . وفى سنن ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها أنه كان فى بيتها رمح موضوع فقيل لها ماتصنعين بهذا . فقالت أقتل به الوزغ فإن النبى صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام لما ألقى فى النار لم يكن فى الأرض دابة إلا أطفأت عنه غير الوزغ فإنه كان ينفخ عليه النار . فأمر صلى الله عليه وسلم بقتله . وكذلك رواه الامام أحمد فى مسنده . وكذلك رووا أنه كلما أحرق بيت المقدس كانت الأوزاغ تنفخه (١)

ومن آثار اتصال العرب بالحيوان أن ربطوا بين أحداث المستقبل والغائب، وبين ظهور الحيوان أو تعرضه لهم بشكل خاص .

ومن ذلك الزجر (٢)

وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام الغيب . وقد ذكر النويرى فى نهاية الأرب (٣) كثيرا مما تدل عليه هذه الحركات والأصوات والأحوال التى تبدو من الحيوان أو الطير وما يتوقع بعدها من الحوادث كقوله :

« فإن خرجت تريد أرضا بعيدة فرأيت غرابا ينتفض فامض لحاجتك فانك تدرك أملك أن شاء الله تعالى .

---

(١) حيوان ج ٤ ص ٦٨ أصل وذيل .

(٢) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٠٧

(٣) نهاية الأرب ج ٣ ص ١٣٥

وقد روى فى ذلك أخبار كثيرة منها ماروا ه الألوسى فى بلوغ الأرب (١) إذ نقل عن المدائنى « أن اعرابيا أضل ذودا له وخادما « فخرج فى طلبهما حتى إذا اشتدت عليه الشمس وحمى النهار مر برجل يحلب ناقة ، قال : أظنه من بنى أسد فسأله عن ضالته ، قال : أدن فاشرب من اللبن وأدلك على ضالتك قال فشرب ثم قال : ماسمعت حين خرجت ؟ قال بكاء الصبيان ونباح الكلاب وصراخ الديكة وثغاء الشاء . قال : ينهاك عن الغدو ثم مه ؟ قال ثم ارتفع النهار فعرض لى ذئب « قال : كسوب ذو ظفر « ثم مه قال ثم عرضت لى نعامة . قال : ذات ريش واسمها حسن ؛ هل تركت فى أهلك مريضا يعاد قال نعم ، قال : إرجع إلى أهلك . فذودك وخادمك عندهم فرجع فوجدهم .

واستمرت هذه العقيدة عندهم إلى مابعد الإسلام وقد روى (٢) أن كثيرا تعشق امرأة من خزاعة فشبب بها فكرهت أن يفضحها كما فضح عزّة فطلبت أن يبتغى لنفسه مالا ويطلبها . فطلب منها أن تحلف له ألا تتزوج حتى يعود ففعلت ، فمدح عبد الرحمن بن الأزدى وخرج اليه فلقى ظباء (٣) سوانح ، ولقى غرابا يفحص التراب بوجهه ، فتطير من ذلك ، حتى قدم على حى من لهب فقال أيكم يزجر ؟ قالوا كانا ، فمن تريد ؟ قال أعلمكم بذلك . قالوا : ذلك المنحنى الصلب . فأتاه فقص عليه القصة فكره ذلك له ، وقال : قد ماتت أو تزوجت رجلا من بنى عمها . فقال كثير .

تيممت لهبا أبتغى العلم عندهم ... وقد رد علم العائفين إلى لهب
فيممت شيخا منهمو ذا نحالة ... بصيرا بزجر الطير منحنى الصلب

---

(١) ج ٣ ص ٣٠٩

(٢) نهاية الأرب ج ٣ ص ١٤٠ و بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣١١

(٥) ليس هناك اتفاق على معنى السانح والبارح . ومن هذه المعانى : السانح مامر من اليمين إلى اليسار والبارح عكسه .

فقلت له : ماذا ترى فى سوانح وصوت غراب يقصص الأرض بالترب
فقال : جرى الطير السنيح ببينها ونادى غراب بالفراق وبالسلب
فإن لاتكن ماتت فقد حال دونها سؤال خليل باطن من بنى كعب

ثم مدح الرجل الأزدى فاصاب منه خيرا ، ثم قدم عليها فوجدها قد تزوجت رجلا من بنى عمها » .

والإسلام قد جاء بابطال مثل هذه الخرافات التى لا تعتمد على أساس من العقل أو الدين . وكان هذا جزءا من محاربته للعقائد التى لاتبنى على أساس صحيح ، فليس هناك ارتباط عقلى بين ذكر كلمة أو مرور طائر أو ظهور حيوان . وبين الحوادث التى تجرى بقدر وتدبير إلهى .

وقد روى لنا عن شعراء الجاهلية والإسلام شعر ينكر هذا الزجر وما يلحق به من الفأل والطيرة . ؟

ولقد غدت وكنت لا أغدو على واق وحاتم (١)
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم

وقال لبيد :

لعمرك ماتدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرت الطير ما الله صانع

وقد أنكر تأثيره ضابئ بن الحارث فقال

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحا ، ولا عن ريثهن يخيب

ولم يعبأ الكميت بالزجر ولا خفل به فى بائيته فقال

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أغضب

ولم تؤد هذه الأوهام عند العرب إلى قصص طويلة متعلقة بها . وما

---

(١) الواق الصرد ، وهو طائر ضخم يصطاد العصافير . الحاتم الغراب الأسود

رأيناه منها أبيات من الشعر مفرقة تشير إليها إشارات عابرة ، أو تفسير للكلمة باختصار فى كتب الأدب أو قواميس اللغة .

ويبدو لى أن علة ذلك كامنة فى انصراف الخيال العربى عن الجرى وراء الأوهام ، وحبك القصص التى توضح تفسيرا لها ، مع قلة هذه الأوهام قلة واضحة .

تلك عقائد العرب فى الحيوان وصلتهم الروحية به ، وهى ضعيفة لا تصل فى تقديسه إلى ما وصلت إليه الأمم الأخرى ، ولم يتعمق خيالهم فى احترام الحيوان وإكباره . لهذا كانت آثارهم الأدبية متجهة إلى ما أوحت به الصلة المادية بينهم وبينه . وكان منها شعر الوصف ، وبابه عندهم واسع ، وإنتاجهم فيه كثير ، ولكنه بعيد عن أن يكون قصصا حيوانيا بمعناه الذى تقدم .

لكن أدبهم لم يخل من قصص حيوانية كالأساطير والخرافات والمواعظ ، أما قصص المعجزات فلها فصل . وأما الأساطير والخرافات فهذا بيانها :

قصص من أساطير الحيوان عند العرب

الأسطورة كما عرفناها : قصة تفسر علاقة الناس بالآلهة أو تفسر ظاهرة من الظواهر الطبيعية والاجتماعية .

ولا يهمنا النوع الأول ، أما النوع الثانى الذى يتصل بالتاريخ الطبيعى والسياسة الاجتماعية والخلقية فمنه قصص تفسر خلقة الحيوان أو تفسر أخلاقه ، وبعض ذلك أصلى عند العرب لا أعرف له مصدرا أجنبيا ، وبعضه منقول عن غيرهم .

ا) القصص التى من أصل عربى

وتكاد هذه القصص تكون متصلة كلها بأمثال ، ومن ذلك :

١ — قصة ذنب الضب .

وهى متصلة بالمثل « أرسح من ضفدع » (١)

جاء فى مجمع الأمثال للميدانى (٢) عند الكلام على هذا المثل :

« قال حمزه فى تفسيره : حديث من أحاديث الأعراب زعمت الأعراب فى خرافاتها أن الضفدع كان ذا ذنب فسلبه الضب ذنبه ، قالوا وكان سبب ذلك أن الضب خاصم الضفدع فى الظمأ . أيهما أصبر ، وكان الضب ممسوح الذنب فخرجا فى الكلأ ، فناداه الضفدع :

ياضب وردا وردا

فقال الضب

أصبح قلبى صردا لا يشتهى أن يردا إلا عرادا عردا
وصليانا بردا وعنكثا ملتبدا (٣)

فلما كان فى اليوم الثانى ناداه

ياضب وردا وردا

فقال الضب « أصبح قلبى صردا » الخ

---

(١) فى الحيوان جـ ٥ ص ١٥٣ « أرشح » بالشين المعجمة ، وكذلك فى بلوغ الأرب جـ ٣ ص ٢٢١ . والرسح بفتح السين قلة لحم الفخذين . والرشح بسكون الشين العرق ، وهما من صفات الضفدع . وقد وردت هذه القصة فى شرح شواهد الكشاف ص ٤٢ مع اختلاف قليل ، وشرح للكلمات الصعبة .

(٢) جـ ١ ص ٣١٢ .

(٣) صردا بكسر الراء « قويا على البرد — العراد « الغليظ العاسى من النبات العرد بكسر الراء « الصلب المنكث والصليان » نوعان من النبات ، البرد « البارد الملتبد « المجتمع بعضه فوق بعض .

فلما كان فى اليوم الثالث نادى الضفدع :

ياضب وردا وردا

فلما لم يجبه بادر إلى الماء ، فتبعه الضب فأخذ ذنبه .

وهذه القصة تفسير لتلاشى ذنب الضفدع ، بعد أن كان له ذنب طويل فى طوره الأول وهو «أبو ذنيبه» . أما الضب فمشهور بطول ذيله وتعقده ، ومشهور باحتماله الحر والظمأ . وقد أشارت هذه القصة إلى سبب طول ذيله وقدرته على احتمال العطش فقط .

٢) قصة أذن النعامة (١)

تزعم الأعراب أن النعامة ذهبت تطلب قرنين فرجعت مقطوعة الأذنين فلذلك يسمون ذكر النعام — الظليم — ويصفونه بذلك . وقد ذكر أبو العيال (٢) الهذلى ذلك فقال . —

١ وإخال أن أخاكم وعتابه .	إذ جاءكم بتعطف وسكون
يمسى إذا يمسى ببطن جائع	صفر ووجه ساهم مدهون (٣)
فغدا يمث ولا يرى فى بطنه	مثقال حبة خردل موزون (٤)
أو كالنعامة إذ غدت من بيتها	ليصاغ قرناها بغير أذين (٥)
فاجتثت الأذنان منها فانثنت	صلماء ليست من ذوات قرون (٦)

(١) ج ١ ص ٢٢٣ الحيوان للجاحظ

(٢) أبو العيال شاعر مخضرم عاش حتى خلافة معاوية

(٣) ساهم وضامر مهزول — مدهون دهن وجهه ليرى الناس انه مخضب وليخدعهم عن سهومه وتغيره .

(٤) يمث « يرى على سحنته ووجهه مثل الدهن

(٥) اذين « من غير أن يؤذن لها

(٦) صلماء « مقطوعة الاذن » .

وقد روى الميدانى أيضا قصتها عندما أورد المثل « كطالب القرن جدعت أذنه »(١) يقول : « العرب تقول ذهب النعام يطلب قرنا فجدعت أذنه . ولذلك يقال له مصلم الأذنين . وفيه يقول الشاعر .

مثل النعامة كانت — وهى سائمة — أذنا حتى زهاها الحين والجبن(٢)
جاءت لتشرى قرنا أو تعوضه — والدهر فيه رباح البيع والغبن
فقيل أذناك ظلم ، ثم اصطلمت — الى الصماخ فلا قرن ولا اذن .

ويقال : طالب القرن الحمار، قال الشاعر .

كمثل حمار كان للقرن طالبا — فآب بلا أذن وليس له قرن

يضرب فى طلب الأمر يؤدى صاحبه إلى تلف النفس .

وقد وردت هذه القصة فى شعر لبشار أيضا . روى الأصفهانى(٣)قال: قال بشار : دعانى عقبة بن سلم ، ودعا بحماد عجرد وأعشى بأهله . فلما اجتمعنا عنده قال لنا : إنه خطر لى البارحة مثل يتمثله الناس « ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد بلا أذنين » . فأخرجوه من الشعر، ومن أخرجه فله خمسة آلاف درهم ، وان لم تفعلوا جلدتكم كلكم خمسمائة . فقال حماد : أجلنا — أعز الله الأمير — شهرا . وقال الأعشى أجلنا أسبوعين ، وبشار ساكت لا يتكلم فقال له عقبة : مالك يا أعمى لا تتكلم ، أعمى الله قلبك ! فقال أصلح الله الأمير قد حضرنى شىء فان أمرت قلته فقال، قل . فقال :

شط بسلمى عاجل البين — وجاورت أسد بنى القين
ورنت النفس لها رنة — كادت لها تنشق نصفين

---

(١) ج ٢ ص ٥٧

(٢) الحين ضخامة البطن

(٣) الاغانى ج ٣ ص ٥ — ٢ طبعة دار الكتب .

يابنة من لا أشتهى ذكره ... أخشى عليه علق الشين
والله لو ألقاك لا أتقى ... عينا لقبلتك ألفين
طالبتها دينى فراغت به ... وعلقت قلبى مع الدين
فصرت كالعير غدا طالبا ... قرنا فلم يرجع بأذنين

قال فانصرف بشار بالجائزة

والمثل كما رواه الميدانى عام ليس فيه تعيين للحيوان وإن عينه الشعر الذى جاء بعد ذلك . وأما المثل كما جاء فى الأغانى على لسان عقبة بن سلم فهو واضح الخطأ ، فالحمار يتمتع بآذان قل أن تطاولها آذان ، حتى صارت كناية عنه ، فقالوا طويل الآذان . وضرب بها المثل فى الطول أيضا . وقد شارك بشارا فى هذا الخطأ فى شعره الذى تقدم قول بعضهم (١)

ذهب الحمار ليستفيد لنفسه ... قرنا فآب وماله أذنان

وقد روى الاستاذ احمد بك امين بيتى بشار الأخيرين كما يأتى . —

طالبتها قلبى فراغت به ... وأمسكت قلبى مع الدين
فكنت كالهقل غدا يبتغى ... قرنا فلم يرجع بأذنين

وزعموا أنه لذلك يسمى بالظليم (٢) .

ولا أستطيع تحليل هذا الخطأ فى رواية المثل فى بعض أقوال الميدانى ولا فى شعر بشار المنقول عن الأغانى . وقد رأيت لهذا المثل توضيحا يستقيم

---

(١) معاهد التنصيص ج ١ ص ٢ - ١

(٢) فجر الاسلام ص ٧٩ - الهقل - الفتى من النعام . وفى محاضرات الراغب الإصفهانى الهيق . حيوان ج ٤ ص ٣٢٣ تحقيق هارون

به المغنى ، على أن الحمار هو صاحب القصة . فقد جاء فى كتاب « أنوار سهيل (١) بالانجليزية ما ترجمته :

« أن حمارا بلا ذيل كان دائم الحزن على حظه الذى حرمه الذيل . فخرج « يبحث عن ذيل ولم يكل ، لكنه أخذ طريقه فجأة و بلا تدبير ، إلى حقل قمح « ناضج السنابل ، فلمحه الزارع من أحد جوانب الحقل ، فوثب إليه فصلم أذنيه « بلا رحمة ، وأصبح هذا الحمار المسكين ، الذى خرج يطلب ذيلا ، بلا أذنين . » ثم يذكر المغزى فيقول . ...

« وأولئك الذين يعتدون مثل هذا الاعتداء ، سيكون جزاءهم مثل هذا الجزاء » .

ولكن كتاب « أنوار سهيلى » لمؤلفه « حسين واعظ الكاشفى » متأخر عن ذلك بقرون (٢) . ولعله أدرك هذا الخطأ فى إيراد المثل وقصته فعدل القصة ، وإن كان تعديله لا يستقيم مع الغاية التى أشرنا إليها فى أول الأمر : وهى إيراد تفسير لخلقة الحيـــة وان على صورة مخصوصة ملازمة . وليست قصة أنوار سهيلى مما نحن بصدده : إذ انها خرافة لا أسطورة والمغـــزى فى آخرها .

٣) وقنزعة الهدهد

وهى الشعر المجتمع على رأسه ، لها قصة أيضا .

يقولون إنه لما ماتت أمه أراد أن يبرها ، فجعلها على رأسه يطلب لها موضعا فبقيت على رأسه . فالقنزعة هى قبرها وإنما أنتنت ريحها لذلك .

---

(١) ترجمة المستشرق الانجليزى Eastwick من المستشرقين فى القرن الماضى وقد أوردها شعرا ص ١٩٣ ، والكتاب مطبوع فى لندن

(٢) حوالى سنة ٩٠٠ هـ

ويقول الجاحظ (١) إن « الهدهد طائر منتن الريح والبدن من جوهره وذاته ، وينقل عن صاحب المنطق أن نتنه يأتى اليه من أنه يبنى بيته من الزبل ، ويطول مسكنه فيه ويفعل ذلك هو وأولاده حتى يصبح النتن طبيعة فيها » ، ولكن الجاحظ لا يرضى هذا الرأى (٢) فيقول :

« وأما الاعراب فيجعلون ذلك النتن شيئا خامره بسبب تلك الجيفة التى كانت مدفونة فى رأسه ، وقد قال فى ذلك أمية أو غيره من شعرائهم » وجاء بقصيدة له ، قال فيها عن الهدهد .

يبنى القسرار لأمة ليجنها ... فبنى عليها فى قفاه بمهد

مهدا وطيئا فاستقل بحمله ... فى الطير يحملها ولا يتأود (٣)

فتراه يدلج (٤) ماشيا بجنازة ... فيها ، وما اختلف الجديد المسند (٥)

ولا أدرى كيف صار ذلك التاج الجميل على رأس الهدهد بهذه الصفة وفسر هذا التفسير ! ولو أنهم جعلوا هذا التاج محفة أو هودجا حملها فيه لكان أولى وأليق بجماله ، لكنهم نظروا إلى القنزعة من ناحية أخرى فاقتربوا منها وشموها ، ثم فسروها هذا التفسير

ويورد الجاحظ زعما آخر فيقول « وأما القول فى الهدهد فان العرب والاعراب كانوا يزعمون أن القنزعة التى على رأسه ثواب من الله تعالى على ما كان من بره لأمه لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه ، فهذه القنزعة عوض عن تلك الوهدة »

---

(١) ج ٣ ص ٥١٠ (٢) ج ٣ ص ٥١٤

(٣) يتعطف ويتلو

(٤) يمشى بحمله مثقلا

(٥) الدهر

ب ـ القصص المتفرقة

أما ما نقلوه من قصص أسطورية فيدور حول تفسير أخلاق الحيوان أو خلقته، وهو يودي الصبغة، ومنه :

و ـ قصة الحمامة والغراب فى سفينة نوح :

أما الغراب فيضربون به المثل فى البطء . وهم يقصدون غراب نوح، وجاء فى تفسير ذلك أن نوحا صلى الله عليه وسلم بعثه لينظر هل غرقت البلاد، وتأتيه بالخبر . فوجد جيفه فوقع عليها ، فلذلك لا يألف الناس. ويضرب به المثل فى الإبطاء (١)

ثم بعث الحمامة لتنتظر هل ترى فى الأرض موضعا يكون للسفينة عرفاً، واستجعلت على نوح الطوق الذى فى عنقها ، وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحلية ومنحها تلك الزينة بدعاء نوح عليه السلام، حين رجعت اليه ومعها من الكرم مامعها ، وفى رجليها من الطين والحمأة مابرجليها ، فعوضت من ذلك الطين خضاب الرجلين ، ومن حسن الدلالة والطاعة طوق العنق (٢)

ومن الذين نقلوا بعض هذه الأساطير إلى العربية رجل معروف بعلمه بعض أساطير اليهود وبعلم شيء من الديانة اليهودية، وهو أميه بن ابى الصلت الثقفى . وقد نقل الجاحظ عنه (٣) شعرا فى هذه الأسطورة قال : ـ

وأرسلت الحمامة بعد سبع ... تدل على المهالك لا تهاب

تلمس هل ترى فى الأرض عينا ... وغايته من الماء العباب

---

(١) ج ١ ص ٧٩ أمثال الميدانى

(٢) حيوان ج ٣ ص ١١٥ و ج ٢ ص ٣٢١

(٣) حيوان ج ٢ ص ٣١٢ تحقيق هارون ـ وأصل القصة فى سفر التكوين أصحاح ٨ من آية ٦ ـ ١٢

فجاءت بعد ما ركضت بقطف ... عليه الشأط والطين الكباب (١)
فلما فرسوا الآيات صاغوا ... لها طوقا كما عقد السخاب (٢)
إذا ماتت تورثه بنيها ... وإن تقتل فليس لها استلاب

ويلحق بهذه القصة أسطورة أراها تفسيرا لصوت الحمام «الهديل». وهو ما تعلله من رقة يشوبها الحزن، ورخامة يلونها البكاء. جاء فى تعليله أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام، فصاده جارح من الطير فليس من حمامة إلا وتبكى عليه الى يوم القيامة (٣).

ويقول نصيب:

فقلت أتبكى ذات طوق تذكرت ... هديلا، وقد أودى وما كان تبع!

فالأسطورة وضعت لتفسير رقة الصوت، وحزن نغماته.

٢ — حبس الديك

ومن القصص التى نقلوها تفسيرا لمعاملة بعض الحيوان — وهى أسطورة قصصية — ما جاء فى سبب حبس الناس للديك. قال الجاحظ (٤):

«وفى كثير من الروايات من أحاديث العرب أن الديك كان نديما للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب، ورهن الديك، فحاس به، فبقى محبوسا».

وظاهر قول الجاحظ أنها عربية «من أحاديث العرب». ولكنه ينقل بعد ذلك شعرا لأمية بن أبى الصلت فى حبس الديك من قصيدة طويلة يتحدث فيها عن هذه الأسطورة وعن طوق الحمامة. فقد قال الديك للغراب

(١) الشأط الطين الأسود المنتن الكذاب اللازب.
(٢) السخاب القلادة.
(٣) بلوغ الارب جـ ٢ ص ٣٦٤
(٤) الحيوان جـ ٢ ص ٣٢٠

لما تركه وذهب ليأتى بالثمن :

أمنتك لا تلبث من الدهر ساعة ... ولا نصفها حتى تئوب مآبيا
ولا تدركنك الشمس عند طلوعها ... فأغلق فيهم أو يطول ثوائيا (١)
فرد الغراب والرداء يجره ... فلا تدعونّ مرة من ورائيا
فلا تيأسن إنى مع الصبح باكر ... أوافى غدا نحو الحجيج الغواديا
لحبّ أمرئ ما كنته قبل حجتى ... وآثرت عمداً شأنه قبل شانيا
هنا لك ظنّ الديك إذ زال زوله ... وطال عليه الليل ألا مفاديا
فلما أضاء الصبح طرّب صرخة ... ألا ياغراب هل سمعت نداديا

وأمسى الغراب يضرب الأرض كلها ... عتيقا وأضحى الديك فى القدعاتيا (٢)
فذلك مما أسهب الخمر له ... ونادم ندمانا من الطير عاديا

وهذه الأسطورة خرافة أيضا . أما الناحية الأسطورية فيها فظاهرة فى تعليل صياح الديك عند مطالع الفجر . فالأسطورة تقول إنه فعل ذلك مناديا الغراب لما غاب عنه وتأخر عن العودة إليه ، وأنه رهين الحبس فى أكثر حالاته . وأما أنها خرافة فللبيت الأخير الذى يتضمن المغزى .

ويبدو من سياق القصة أنها ملحقة بقصة طوق الحمامة فى شعر أمية . وأمية كان مطلعا على ما عند اليهود والنصارى من كتب دينية وما فيها من عقائد وأساطير وكان يفعل ذلك ليرشح نفسه للنبوة التى كان يدرك قرب زمانها (٣) فهى يهودية .

ويعلق المرحوم مصطفى صادق الرافعى (٤) على هذه القصص « الديك

---

(١) من غلق الرهن إذا لم يفك وآل إلى المرتهن (٢) السير من الجلد
(٣) حيوان جـ ٢ ص ٣٢٠
(٤) تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ١٥٤

والغراب وطوق الحمامة » فيقول : ولكن نظم أمية فى هذه المعانى لا يرمى إلى شىء غير معنى القصص، كأنه لا يريد من الشعر إلا أن يكون دليلا على علمه وترشحه للأمر الذى يرشح له نفسه كما سبق » . ولكنى بينت أن قصة الديك والغراب قد تكون خرافة لا اشتمالها على المغزى الخلقى

وقد رأينا فى شعر أمية بن أبى الصلت مغزى خلقيا فى نهاية هذه الأسطورة ، فكانت دليلا على أن الأسطورة يمكن أن تشتمل على المغزى أيضا كما تشتمل عليه الخرافة .